دِيبَـاك

عنوان الكتـــاب: ديبـــاك
الموضـــــــوع: رواية
التأليـــــــف: أيمن العزازي
مراجعـة لغوية: أيمن العزازي
الإخراج الفنـــي: أحمد موسى
تصميم الغـلاف: عبد الرحمن محمد
رقـــــم الإيداع: 2021/ 1558
الترقيم الدولـي: 98797784418206
الناشـــــــــر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar

elfnaar@gmail.com

فيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى

المدير العام/ أ. مصطفى أمين

01013483506
01550102499

جميع حقوق الطبع والنَّشر محفوظة

دِيبَـــــاك

رواية

أيمن العـزازي

إهـــــداء

إلَى رَوْح والدَتِي التي كُنتُ أتمنَّى أن أطوِيَ الدُّنيا

لأضَعها تَحتَ قَدَمَيْها بِرًّا بها

أسأل الله لكِ الفِردَوْسَ الأعلى.

وإلى زَوْجَتي دُرَّة حَيَاتِي ومُهْجَة فؤادي

من سانَدَتني في مِحنَتي

حَسْبي أنكِ تعلَمِين مَا فِي قلبي.

******

"لقَد قَتلَ أبي عمِّي واتهَمَنِي بقتله ليَسْتولِي علَى حقِّي "

كانت هذِهِ هي العبارة التي طالما أجبتُ بها على السؤال الحتمي لكل من يراني للمرة الأولى في هذا المكان: ما الذي أتي بك إلى هنا ؟

فهذا هو السُّؤال التمهيدي لبدءِ كافَّة أنواع المحادثات في كافة السجون.

يا لغبائي؛ ألم أخبركم بعد أين أنا ؟

حسنًا أنا أجلس حاليًا في قسم شرطة ترحيلات الخليفة في انتظار ترحيلي إلى قسم شرطة المنصورية لأُتمَّ إجراءات خروجي بعد خمس سنوات ونصف من الحبس قضيتها في سجن استقبال طره بتهمة قتل عمي (صلاح فتحي الكيال) .

لا أخفِيكُم سِرًّا أنني طالما أردت قتله فهو بلا ريب يستحِقُّها عن جدارة ولكنني أضمرتُ في نفسي هذه النِّية وجعلتها كالحُلمِ يراودني، فكلما استشاط بي الغضب منه أستلقي على فراشي ليلًا وأتخيلُ كلَّ مرةٍ طريقةٍ جديدةٍ لقتلهِ، إلا أنَّ أبي سبقَنِي إليهِ ولم يكتفِي بأنه قتله بطريقةٍ تقليديةٍ دونَ أن يتقيَّد بالطُرُقِ المذهلةِ التي ابتكرتها من أجلِهِ، بل إنه اتهمني أنا ولده الوحيد بقتله، وها أنا ذا بعد أن حُكِمَ عليَّ بعشرِ سنواتٍ من السِّجنِ بدأتُها وأنا في التاسعةِ عشَر قضيتُ منها خمس سنواتٍ وستةِ أشهُرٍ وأحَدَ عشَرَ يومًا، لا أزال أكرِّر نفس العبارة عند إجابة نفس السؤ ال.

بالطبع تقولون الآن أن كل يُحكَم بالسِّجن يدَّعي أنه مظلو م.

أنا أيضًا كنت أتخيَّلُ هذا، ولكن دعوني أفاجِئُكم أن هذا ما نراه على شاشات السينما فقط، أما الواقع فهو أن كل مسجون هنا يروي قصة جريمته وكأنها مدعاةٌ للفخر، خاصة جرائم القتل، فكلُّ قاتل يَعْتبِر ضحيته تستحق القتل لسببٍ أو لآخر.

أسمعُ من يقول: وما الذي يدفعُ والدَك إلى القيامِ بهذا؟

بالطبع ليحصل على فرصةٍ للخلودِ، ما الذي يدفَعُهُ للقيامِ بهذا غير ذلك!

أنتم لا تعرفون القصة؟

حسنًا دعوني أخبِركُم منذ البداية.

أنا (يوسف مختار فتحي الكيَّال).

الشهير بالدجال.

وهذه قصتي.

******

١. المُرَشَّـح

الزمان: سنة ٣٦٠ قبل الميلاد.

المكان: مدينة مَروِي عاصمة مملكة كُوش (شمال السودان حاليًا).

ارتفَعَت دقات الطبُّول عاليًا وشرَع أربعة عشر رجلًا يُشَكِّلُون دائرة في الرقص على نغماتها وهم يطلقون صيحات عالية ويلوِّحون بأيديهم ببعض عظام الحيوانات التي يتدلى منها بعض الحبال الرفيعة القصيرة التي تنتهي بمزيج من الأحجارِ والقطع المعدنية والتي تُصدِر أصواتا عاليةً عند اصطدَامِها ببعضِها البعض.

كان الرجال داكني البشرة تغطِّي وجوهَهُم وأجسادَهُم شبه العارية رسوم مختلفة باللونين الأبيض والأحمر ويرتدون أقنعة بدائية بُنِّية اللون مرسوم عليها باللون الأبيض وجوهًا لحيوانات برية وتتدلى من أعناقِهِم قلادات مصنوعة من أنياب الحيوانات، وفي منتصف الدائرة جلس كاهنٌ لا يختلف عنهم في الهيئة القرفصاء وبيده قطعة من حجر السبج يثقب بها جلد رجلٍ آخر يرقد على ظهره شبه عارٍ إلا من خِرقةٍ باليةٍ بالكادِ تسترُ عورَته.

كان يرسُمُ وَشْمًا ما على صدرِ الرَّجلِ تاركًا الدماء تسيلُ من موضعِ الوَشمِ حتى لامَسَت الرمال من تحتِهما، وما إن انتهى حتى وقَفَ

على قَدمَيهِ ورفع يديه عاليًا وهو يصيح بقوَّةٍ مستدعيًا أحد آلهتهم يُدعَى (تويوي) مُعلِمًا إياهُ أنَّ وِعاءَهُ الجديد أصبحَ مُعَدًّا لاستقبالِه.

ارتفعت حدَّة صيحات الرجال من حوله وبدأ الرجل الراقد ينتفض انتفاضات شديدة أخذت في الهدوء شيئًا فشيئًا حتى زالت تمامًا، ثم شرع في النهوض وفي عينيهِ بريقٌ أخضر اللون وهو ينظر إليهم في ترقُّب، وما إن زال البريق من عينيه حتى أشار الكاهن إلى الرجال فاندفعوا نحوه وأسقطوه أرضًا في عنف وجثموا فوقه مكبِّلين إياه بإحكام.

وبدأ الكاهن في طقوسِ استدعاءٍ جديدةٍ لإلهٍ آخر يُدعى (أباداماك)، وما إن سمع الرجل الموشوم هذا الاسم حتى انتابته نوبة هياج وبدا وكأنه تلقى قوة عشرة رجال وأخذ يدفع الرجال من فوقه ويقذفهم ما لا يقل عن خمسة أمتار في الهواء، فراحوا يتساقطون واحدًا تلو الآخر.

أخذ الكاهن يركض مبتعدًا وهو لا يزال يصيح مستدعيًا (أباداماك) إلا أن الرجل مد ذراعه أمامه وبدا وكأنه يمسك بأصابعه شيئًا ما، فتسمَّر الكاهن في مكانه وأمسك برقبته يحاول تحريرها من شيء لا يراه وهو يلفظ أنفاسه بصعوبة وكأنه يختنق، فاستدار ينظر إلى الشاب وقال بلغته المروية: لم يكن هذا اتفاقنا.

قال الرجل بلهجة مخيفة: اتفاقك لم يكن معي أيها الأبله.

وضغط بيديه أكثر فصدر صوت قرقعة مكتومة من رقبة الكاهن وسقط على إثرها أرضًا وقد فقدت عيناه أي أثرٍ للحياة، فنظر الرجل الموشوم إليه طويلًا ثم قال وكأنه يحدِّث نفسه: ما اسمك؟

سكت قليلًا ثم قال: حسنًا يا (مودور) يبدو أن هذه المنطقة قد بدأت تضيق بنا، فلنرحل ولْنرَ ما تخبِّئُهُ لنا هذه الأرض.

قالها وبدأ المسِير.

******

السرُّ في عائلتي يكمن في كلمتين؛ (شوقي الكيال) أو (ديباك) رجل قوي البنية، وسيم الخِلقَةِ، مهيب الطلعة، هو الآمر الناهي في هذه العائلة، قرارُه نافذٌ وحكمُه باتٌّ، لا يُسمَع لرجل مهما كان قدرُه كلمةً بعد كلمتِه، عندما تراه للوهلة الأولى تظن أنه في العقد الثالث من العمر، إلا أنه في الحقيقة أتمَّ بعد سجني بأيام قليلة عامَهُ المائتين والعشرين.

منذ قرونٍ ليست بالقليلة بدأت رحلة الخلود في عائلتي، أحد أجداد أجدادي توصل بشكل ما إلى سر الخلود، لا نعلم إذا ما كان بسحر ساحرٍ أو بإكسير عالم، ولكن النتيجة هي ما أراه أمامي الآن (شوقي الكيال) الذي تعدى عمره قرنين من الزمان ومازال من يراه يعتقد أنه في ريعان شبابه، ولكنه لا يستطيع تمرير هذه الهبة إلا عند بلوغه مائتي وعشرين عامًا وإلا خاطر هو نفسه بفقدانها، لذا فبعد مضي الوقت المحدد تدور الدورة، وينضم أحد أفراد العائلة إلى

قوافل الخالدين ويتولى إدارة شؤون العائلة ويصبح (ديباك) وهي كلمة تعني (الخالد) بلغة أفريقية قديمة، وينضم سلفه إلى حيث بقية الأفراد الذين سبقوه إلى رحلة الخلود، يقبعون في الخفاء ولا يلقاهم إلا (ديباك) الحالي.

إلا أنَّ هناك شروطًا تقيِّد عملية اختيار المرشح الجديد، فلابد للمرء لكي يتم اختيارِه أن يكون عمرُهُ ما بين الثامنة عشر والسابعة والعشرون عند بلوغ (ديباك) الحالي عامه المائتين والعشرين، لماذا؟ بالطبع لا أعرف، ولا أعتقد أن أبي أو عمي يعلمان السبب، هذا ما أخبرنا به السيد (شوقي) ولابد من تنفيذ ما يقوله أيًا كان، فعلى هذا جُبلوا منذ نعومة أظفارهما، هما ووالدهما بل وجدهما وجد جدهما أيضًا.

كنتُ أنا وابن عمي (أشرف) المؤهلَين الوحيدَين في العائلة الذَيْن تتناسب أعمارهما مع هذا الشرط فعند بلوغ (شوقي الكيال) ذلك الأجل، سأكون في عامي التاسع عشر و(أشرف) في العشرين من عمره، لذلك كان لابد من الاختيار بيننا.

كانت حياتي عبارة عن خارطة مرسومة بدقة من قِبل والدي وعمي، نسير فيها سويًا أنا وابن عمي، ففي الثانية عشرة من عمري كنت أتحدث الإنجليزية والفرنسية والإيطالية بمستوى متقدم جدًا، وفي الخامسة عشر حصلت على الحزام الأحمر في رياضة التايكوندو

بالإضافة إلى رياضة رفع الأثقال التي كان يجبرني والدي على ممارستها.

كُنَّا في سباقٍ دائمٍ وضَعَنا فيه أبوانا تحت إشراف السيد (شوقي) للاختيار من بيننا، وكان هذا الوغدُ متقدمًا عنِّي بخطوةٍ دائمًا، ونتيجة لذلك كنتُ أتلقى اللوم دائمًا من أبي، كان هذا حتى ذلك اليوم الذي أنهَى فيه (أشرف) مرحلة الثانوية العامة حاصلًا على الدرجةِ الكاملةِ، وأصرَّ والدُه على إلحاقِهِ بكلية الطب رغم معارضة ابنه الذي كان يعلم أن هذا سيخرجه من السباق الذي طالما كان متفوقًا فيه، ومع قبوله رسميًا بكلية الطب انتهت المنافسة وأصبحتُ أنا المرشَّح، وعندما حصلت في اختبارات شهادة الثانوية العامة على ٩٩,٨٪ تلقَّيتُ تأنيبًا شديدًا على الدرجة المفقودة ثم أصرَّ والدِي على إلحاقي بكلية التجارة قسم اللغة الإنجليزية لتولِّي إدارة شركات العائلة فيما بعد حيثُ كان هذا هو المسار الذي رسِم من قِبَلِهِ وأخيه.

ترتَّب على كوني المرشَّح الوحيد بداية صفحة جديدة في حياتي وتدريبي على يد السيد (شوقي) شخصيًا على علم التعاويذ فللخلودِ تبعاتٍ وامتيازاتٍ، وأهم هذه التبعات أن الأمر متعلق بشكل ما بفنون السحر الأفريقي القديم، كنت أجده عِلمًا مُظلمًا إلى حد ما إلا أنه هو ما جعلني فيما بعد أمضي فترة سجني بلا مضايقات، صحيح أن تحضير تعويذة ما أمرٌ صعبٌ للغاية وخاصة في السجن حيث يصعب بشدة توفير متطلباتها إلا أنني تدبرت أمري، فقد

كانت تعويذة إضرام النار التي ألقيتها على (نمرة مُسَيَّر)** الطابق عندما أراد أن يستولي على بعض أغراضي، وتعويذة الكسر التي ألقيتها على ذراع أحد السجناء ذو جثة ضخمة وقبضة قوية عندما حاول إجباري هو وزملاؤه الأربعة عشر على غسل ملابسهم كافيتين ليتيقن الجميع من أنني (مخاوي) ويبتعد عن طريقي جميع أصحاب القبضات القوية ومن هنا كان لقبي في محبسي (الدجال).

كنتُ يومها بصحبة أصدقائي نحتفل بيوم ميلاد أحدهم في أحد الأندية عندما ارتفع رنين هاتفي وإذا بوالدي يطلب مني الحضور إلى المنزل على عجل، أخبرته أنني وسط حفل مع أصدقائي وسآتي خلال ساعتين، إلا أنه أصَرَّ على حضوري على عجل فانْصَعْتُ صاغرًا لأمره كالمعتاد يملؤني الحنق وأنا ألعَن هذه العائلة التي تحركنا كقطع الشطرنج دون أن تخبرنا بأي سببٍ حتى ولو كان غير مقنع، وتلقيت بالطبع عبارات السخرية من زملائي الذين أخذوا يتفكَّهُون على ذلك الطفل الذي استدعاه والدُهُ على عجلٍ حتى لا يبرد كوب اللبن الدافئ، ورُحتُ أذكِّرُ نفسي بأنني بعد ستة أيام سوف أكون أنا الآمر الناهي في هذه العائلة، فالسيد (شوقي) سوف يبلغ المائتين والعشرين وهو يحضِّر لطقوس الانتقال بعد أيامٍ سِتَّة، حتى والدي لن يجرؤ على استدعائي هكذا مرة أخرى.

** (النمرة): لفظ عامي يطلق على حشية المسجون الذي يفترشها أرضًا في محبسه، (المُسَيَّر) هو المسؤول من المسجونين عن الطابق أو الغرفة ويعينه ضابط المباحث بالسجن.

وصلتُ المنزل والذي هو عبارة عن (فيلا) فارهة بمنطقة المنصورية وتوجَّهت مباشرة إلى غرفة المكتب حيث يتواجد أبي دائمًا واستأذنت في الدخول ودلفت إلى الداخل، وبمجرد دخولي عرفت أن أمرًا ما ليس على ما يرام فالغرفة بها بعض الأوراق والملفات الملقاة على الأرض وهذا بالتأكيد أمر استثنائي حينما نتحدث عن والدي.

طلب مني الجلوس ثم خرج من غرفة المكتب وأجرى مكالمة هاتفية لم أتبين محتواها ثم عاد ليجلس على مقعده دون أن يتفوَّه بكلمة، سألته: خيرًا يا أبي، لماذا استدعيتني؟

نظرَ إليَّ بعاطفةٍ لم أعهدها عليه وقال: هل ساوَرَكَ الشَّك يومًا حول حبي لك؟

كنتُ مُراهقًا في التاسعةِ عشر من عُمرِي، أحد حقوقي الأساسية التي يكفُلها لي دستور تلك المرحلةِ العمريةِ هي حقُّ الشعورِ بأن أبي لا يحبني وأنَّ الكون يحيكُ مؤامرةً محكمةً ضِدي إلا أنني أجبتُهُ كاذبًا: بالطبع لا.

سكتَ لدقائقٍ طويلةٍ وخيَّمَ صمتٌ ثقيلٌ على المكان وأحسَسْتُ بأن هناك كارثة ما فالتزمت الصمت بدوري، فأبي لم يصرِّح يومًا بحبه لي، جال بخاطري أنه أيًا كانت المشكلة التي يمر بها أبي فبالتأكيد السيد (شوقي) يمتلك حلًا لها فسألته: أين السيد (شوقي)؟

- لقد احتجَزتُه.

قلتُ بفزعٍ: ماذا! احتجَزتَه! كيف استطعت فعل هذا؟ ولماذا؟

لم يجب سؤالي وإنما هبَّ واقفًا واصطحبني إلى غرفةٍ مجاورةٍ وما إن دلفتُ داخلها حتى وجدتُّ عمِّي ملقى أرضًا مُدرَّجًا بدمائهِ ويبرز من صدره مقبضًا لخنجرٍ فضيٍ فقلت في هلع: ماذا حدث، هل هو.. هل هو ميت؟ هل السيد (شوقي) من فعل به هذا؟ ألهذا تحتجزه؟

- لا ليس هو، بل أنا من قتلته.

زاد هلعي وأنا أقول: ماذا، أنت قتلت عمي، كيف، ولماذا؟

- لأنه حاول منعي.

- منعك من ماذا؟

- اسمع يا ولدي، أنا أعلم أنك لن تستوعب هذا الأمر بسهولة، وأنك ستعتقد أنني أسعى لمصلحتي الشخصية، ولكن لا يمكنك أن تكون أنت الوريث القادم، لقد احتجزت السيد (شوقي) بتعويذة أبحث عنها منذ مدة وأخيرًا وجدتها قبل فوات الأوان.

بدأت الأمور تتضح أمامي فوالدي طمع في القوة وحاول أن يستولي عليها إلا أن عمي حاول منعه فلم يكن أمامه سوى قتله، غلت الدماء في عروقي وتقافزت شياطين الدنيا أمام وجهي وصحت في وجهه للمرة الأولى: إذن أنت تريد أن تستولي على حقي لن أسمح لك بهذا، لقد أمضيت حياتي كلها أتجهَّز لهذا، لن تذهب سنين عمري سُدى لمجرد أنك رجلٌ أناني.

قال بهدوء: للأسف يا ولدي، لقد تخيَّلتُ ردة فعلك هذِهِ واضطُّرِرتُ لأخذ إجراء يمنعك من التدخل.

لم يكد ينهي عبارته حتى فُتِح باب المنزل الرئيسي ودخلت منه قوات الشرطة لتملأ المكان واقترب مني رجلٌ في زيٍّ مدني وقال: أستاذ (يوسُف)؛ أنت رهن الاعتقال بتهمة قتل عمك (صلاح الكيال).

أشرتُ إلى والدي وأنا أصيح في غضب: هو من قتله لقد اعترف لي قبل لحظات.

أحاطَ بي اثنين من رجالِ الشرطةِ وقيَّدا معصمَيَّ بالأصفاد ودفعاني دفعًا إلى الخارج وأنا أنظر لوالدي وأصيح: (ديباك) هو حقي ولن أتركك تسرقه مني.

قال: صدقني يا بني، أنا أحبك.

صحت وكراهية الدنيا تفيض من صوتي: وأنا أكرهك.

وهكذا أمضيت في محبسي ما يزيد على خمس سنوات كئيبات لم يزرني فيهِنَّ أحدٌ من عائلتي إلا أنه على رأس كل عام كانت تأتيني بعض الثياب الجديدة والأطعمة الفاخرة لا أعلم من يقوم بإرسالها، بالإضافة إلى مبلغ ضخم من المال يوضع باسمي في أمانات السجن وكلما سألني أحد عن سبب مجيئي أجبته بتلقائية: لقد قتل والدي عمي واتهمني بقتله ليستولي على حقي.

وها أنا ذا أنتظر عربة الترحيلات التي ستقلني إلى قسم شرطة المنصورية لأنهي إجراءات خروجي ولتنتهي السنوات التي قضيتها في غياهب السجون ولأتنَسَّم نسيم الحرية من جديد وأستعيد حقي المغصوب مهما كان الثمن.

٢. اقْتِحَـام

وطأتُ بقدمي الطريق بعد إنهائي لإجراءات الإفراج ووقفت أمام قسم الشرطة أولِيهِ ظهري وقد بدأتُ في التردد حيالِ المواجهة التي عزمت عليها مع أبي، إلا أنني لم يكن لدي أدنى فكرة حول ماذا سأفعل إن لم أتوَجَّه إلى المنزل الآن وأواجهه لأعرف لماذا أقدم على ما فعل، فلم يكن إقدامه على سرقة ما هو مقدَّر لي هو ما يحيرني فمازالت فكرة الخلود تغرِي أي بشري على وجه البسيطة، أمَّا ما كان يحيرني فهو أنه كان يستطيع فعل هذا دون الزَّجِّ بي في السجن، كان هذا الأمر هو ما يؤرقني ليلًا ويوقد لهبًا مستعرًا في عقلي كلما فكرت فيه نهارًا.

عزمتُ أمرِي وألجمتُ تردُّدِي وتوجهتُ إليه مترَجِّلًا فما كنت أمتلك من نقود حين تم حبسي لم يكفِ سوى أسبوعًا واحدًا في قسم الشرطة حيث عليك أن تدفع مقابل كل شيء تقريبًا حتى مقابل ذهابك إلى دورة المياه، أما التعامل في السجن فكان من خلال القسائم التي تودع باسمي فقواعد السجون تمنع تداول النقود بين السجناء.

لا أعرف كم استغرقت من وقت فساعتي كانت سعيدة الحظ ولم يُقَدَّر لها البقاء سجينة كل هذه الفترة في غرفة الأمانات وسبقتني بعدَّة سنوات لرؤية الشمس من جديد في يد مالكها الجديد أيًا كان.

وصلتُ مُتعبًا إلى بوابة المنزل فلم أعتد على بذل هذا المجهود منذ سنوات ووجدت رجلي أمن يعترضان طريقي لم أعرفهما فلم يكونا موجودين قبل سجني، وهمَمْتُ بالطلب منهما أن يفسحا لي الطريق ولكن قبل أن أتفوَّه بحرفٍ قال أحدهما بصرامة: (مختار) بك يطلب منك الرحيل وعدم العودة إلى هنا مرة أخرى.

صحت في غضب: كيف تتحدث معي هكذا أيها الوغد، ألا تعرف من أنا؟

أجابني بنفس اللهجة الصارمة: أنت السيد (يوسُف) ابن (مختار) بك وقاتل شقيقه (صلاح) بك، هو يعلم بقدومك اليوم ويبلِّغُك بألَّا تعود إلى هنا مرة أخرى.

احتقَنَ وجهي واختنَقَ سيل الشتائم الذي كنت أعتزمُ إطلاقه في حلقي وعجزت عن فعل شيء سوى الانسحاب بهدوءٍ ذليلًا منكسرًا.

سرتُ مبتعدًا لا آلو على شيء وكل ما يشغل تفكيري هو: ماذا بعد؟ فلم يكن هذا ضمن السناريوهات التي رسمتها لما بعد خروجي، أن يرفض حتى أن يتحدَّث معي ويطردني كسائلِ الإحسان من بخيلٍ متجبِّر.

لم أكن أمتلك مالًا ولا بيتًا ولا حتى مؤهِّلًا يمَكِّنني من الالتحاق بأي عمل فلم أتمكَّن من إنهاء كليتي في محبسي لوجود إجراءات لابد أن يقوم بها شخص من الخارج، وأنا بالطبع لم يكن لديَّ مثل هذا الشخص.

كانت الأفكار السوداء تتدفق إلى رأسي حين وقفت تلك السيارة الرمادية بجواري وخاطبني قائدها قائلًا: أرى أنك أنهيت إجراءات خروجك مبكرًا.

قلتُ في دهشة: ماذا؟

- لقد ذهبتُ إليك في قسم الشرطة فأخبروني أنك غادرت، فحاولت اللحاق بك قبل أن تأتي إلى المنزل إلا أنه من الواضح أنني تأخرت.

كان المتحدث شابًّا في العقد الثالث من العمر حاد الملامح إلا أنه كان يحاول الابتسام أثناء حديثه فسألته ومازالت الدهشة لم تفارقني: من أنت؟

- الرائد (خالد السيوطي) معاون مباحث بمديرية أمن الجيزة.

- وماذا تريد؟ لقد أنهيت عقوبتي منذ قليل ولا أعتقد أنني ارتكبت جريمة قتل أخرى في الساعة التي قضيتها خارج السجن!

قال ضاحكًا: لا لا، بالتأكيد لم تقتل أحدًا في هذه الساعة، وإن كنت أعتقد أنك لم تقتل أحدًا قبل ذلك.

بدا الاهتمام على وجهي فقال: أعلم أنه تم طردك من المنزل وأعلم أنك لا تمتلك مكانًا تذهب إليه، اركب معي نتحدث قليلًا ونرى إن كان بإمكاننا أن نجد حلًا لهذِهِ المشكلةِ سويًا.

فعلت ما طلب، فعلى أي حال ليس لي مكانًا أذهب إليه، وعلى مائدة في مطعم في وسط البلد جلسنا نتناول الطعام وأنا أسترق إليه

النظر كل فترة أحاول سبر أغواره لعلي أعلم ما يُضمره لي من خيرٍ أو شر، سألته في حدة: لم تقل حتى الآن ماذا تريد.

- لقد كنت تقول في التحقيقات أن والدك هو من قتل عمك وأنك كنت مع أصدقائك وقت الحادثة، أليس كذلك؟

- نعم قلت هذا ولم أستطع إثباته خاصة أن أصدقائي أنكروا وجودي معهم ذلك اليوم.

- بعد الحكم عليك بدأت تظهر بعض الحوادث الغريبة في عائلتك، فأبناء عمومة والدك وشركائه في نفس الوقت تم قتلهم في حوادث متفرقة ما بين حادث سيارة، أو حريق منزل، وأحدهم تعثر وسقط من شرفة منزله، وآخر اختنق في حادث تسرب للغاز بعد أن ترك الغاز مفتوحًا بعد إعداد قهوته الليلية المعتادة قبل نومه، والأخير غرق في حمام سباحة منزله الذي كان معتادًا على السباحة فيه يوميًا قبل ذهابه إلى عمله.

لم أعلم هذه المعلومة إلا الآن، ومع ذلك لم أُصَب بأي دهشة وقلت ببرود: لقد قتلهم جميعًا، بالتأكيد اعترضوا على ما حدث فتخلَّص منهم واحدًا تلو الآخر.

- هذا ما كنت أعتقده، أنه تخلص منهم لخلافه معهم على أمر ما، خاصَّةً أن أحدهم باع أسهمه له في مجموعة الشركات التي يتشاركها والدك مع عائلته بتنازل رسمي قبيل وفاته، إلا أن والدك

تعرَّض هو الآخر لمحاولة قتل وأصيب برصاصتين في صدرِهِ نجا منهما بمعجزة.

قلت مُتهكِّمًا وأنا أعلم أن هذه المعجزة التي يتحدث عنها هي ما سرقهُ والدي مني: وأي معجزة.

سكت قليلًا ثم سألني: ما الأمر الذي اعترضوا عليه فاضطروه إلى قتلهم جميعًا؟

لم أُجِبْهُ بالطبعِ فلستُ مستعدًا للذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية، فقط لأن أحدهم يملك مخيِّلة محدودة ولن يصدق كلمة واحدة مما سأقول فتابع: ما هو (ديباك)؟

نظرت إليه في دهشة فهذا اللقب لا يُسمح لأحدٍ بالتلفظ به لمن هو خارج إطار العائلة.

تابع: لقد قرأت التحقيقات التي أُجريت معك، ولقد كُتِب فيها أنك صرخت في والدك أثناء إلقاء القبض عليك وقلت "(ديباك) هو حقي ولن أتركك تسرقه مني" ما هو (ديباك) الذي سرقه منك والدك واستحق أن يقتل كل أفراد عائلتك من أجله؟

قلت في عدم فهم: لماذا تهتم الآن؟ لماذا لم تحقق في مقتلهم حينها؟ بالتأكيد سيكون إثبات قتله لهم أسهل من الآن.

- صدقني حاولت كثيرًا، ولكن رؤسائي منعوني من استكمال التحقيق إلا بدليل مادي، ومازلت لا أملك مثل هذا الدليل إلى الآن، وكلِّي رجاء أنك قد تمتلك شيئًا ما يضع أقدامنا على بداية الطريق.

- ثق تمامًا أنني لو أخبرتك فإنك لن تصدق كلمة مما سأقول.

- جرِّبني.

تردَّدت قليلًا ثم بدأت في السرد، أخبرتُه عن السيد (شوقي) وإرث الخلود في عائلتنا وأسطورة (ديباك) وأنها تعني (الخالد) حتى انتهيت إلى لحظة مقتل عمي وقلتُ: وأنت تعرف ماذا حدث بعدها.

كان يستمع بصمت واهتمام وانتظرت ضحكة ساخرة أو تهكُّمٍ ما، إلا أنه علَّق قائلًا: ولهذا لم يمت عند إصابته برصاصتين في صدره.

أومأت برأسي موافقًا وسألته بتردد: إذن فأنت تصدقني؟

أجاب سؤالي بآخر: وكيف استطاع أن يحتجز (شوقي) هذا الذي تدَّعي أنه بهذه القوة؟

- لا أعلم، كنت أظن هذا مستحيلًا، ولكن هذا ما حدث؟

سكت قليلًا ثم أخرج من جيبه مبلغًا من المال وهاتفًا قديمًا وأعطاهما لي وقال: حسنًا تدبر أمر مبيتك في أي فندق صغير لليلتين أو ثلاث حتى أتدبر لك مكانًا تسكُن فيه، وستجد رقمي مدون على هذا الهاتف اتصل بي لو احتجت لشيء وسأتصل بك خلال يومين على الأكثر.

قالها وتركني وانصرف.

******

أطحت بقوة بحسامي الأسود الضخم برأس أحدهم ثم أغمدته في صدر آخر صادًّا بدرعي ضربة من سلاح حاد كادت تفتك بي، كانت

المعركة محتدمة، وصليل السيوف يصم الآذان وزئير الآلات العملاقة التي تطيح بالبشر يملأ أرض المعركة، وكنت أقاتل بضراوة ومهارة وكأنني فارس مغوار تربيت في أرض المعركة، ووسط المعركة كان ذلك الرجل المدَرَّع يبحث بإصرار عن شيء ما -أو أحد ما- أخذ يصول ويجول في أرض المعركة مخلِّفًا وراءه جثثًا هامدة بعدد ما طاله سيفه وما إن وقع بصرَهُ عليَّ حتى اندفع نحوي بسرعة وكأنه وجد ضالته، حاولت التراجع إلا أن الرجل وصل إليَّ بقفزات متتالية أطاح خلالها برقاب ثلاثة من الجنود من حولي، وضربني بسيفه بقوة إلا أنني تمكنت من صدِّها بدرعي بمهارة، وبدأت مبارزة شرسة بيننا تناثر فيها الشرر إثر اصطدام سيفينا إلا أن ميزان القوة لم يكن في صالحي، وبالفعل جرَّدني الرجل المدرع من سيفي بضربة ماهرة وطعنني في جنبي طعنة طرحتني أرضًا ورفع سيفه عاليًا ليُجهِز عليَّ إلا أنني ضغطتُّ أداة مخروطية الشكل معلقة بحزامي وما إن لمح يدي تمتد إليها حتى وجَّهَ إليها سيفه بسرعة واخترقها بعد أن ضغطتها بأقل من ثانية، شعرت بعدها بجسدي ينسحق بقوة، وأفقت من نومي مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم.

أخذتُ أحدِّق في الغرفة ذات الأثاث القديم البالي التي أرقد على فراشها ذي الأغطية المتسخة، وألهث بشدَّةٍ والعرقُ يُغرِق ملابسي وكأنني كنت في قتال حقيقي، إنه نفس الحلم الذي أراه على فترات متقطعة منذ أكثر من عام قبل سجني، كنت في البداية أسخر من نفسي بسبب أفلام الخيال التي أشاهدها والتي لابد أنها أثَّرت على

عقلي وأحلامي، إلا أن تكرار الحلم بنفس التفاصيل بنفس النهاية جعلني أظن أنني ملعون، بالتأكيد أحد أقربائي لعنني بشكل ما حتى أرى هذا الكابوس الذي أموت في نهايته كل مرة بهذا الشكل المخيف.

هدأت أنفاسي المتلاحقة فأمسكت بالهاتف القديم وحاولت الاتصال بالرائد (خالد) إلا أن هاتفه كان غير متاح كالمعتاد، فاستلقيت ثانية على الفراش وأعدت التفكير في وضعي الراهن، لقد مرَّ أسبوع بأكمله على لقائي بـ(خالد) الذي لم يحاول التواصل معي كما وعدني، بل وكلما حاولت الاتصال به وجدت هاتفه غير متاح والنقود التي أعطاني إياها أوشكت على النفاد، لم يكن أمامي سوى فكرة مجنونة حاولت تجنُّبها كثيرًا على مدار يومين إلا أن الخيارات المتاحة أمامي لم تكن كثيرة، لابد أن ألتقي بالسيد (شوقي)، هو وحده من يستطيع إخباري كيف يمكنني التصرف في هذا الموقف، المشكلة أنني لا أعرف أين يحتجزه والدي، هناك سبعة أو ثمانية أماكن على الأقل يمكنه أن يحتفظ به فيها دون أن يعلم أي مخلوق بهذا، لذا كان لابد لي من أداء تعويذة للكشف عن مكانه، نظرتُ إلى ساعة الهاتف، مازال هناك ساعة كاملة على شروق الشمس حيث لابد أن تتم التعويذة في هذا التوقيت، لذا أسرعت في البدء حتى أكمل رسم التعويذة قبل هذا الوقت.

أخرجت محتويات الأكياس التي أحضرت فيها متطلبات التعويذة ووضعتها بجواري وشرعت في رسم التعويذة من ذاكرتي حسب ما

علمني إياه السيد (شوقي) الذي أصر على حفظي لجميع تفاصيلها بكل دقة معلِّلًا ذلك بأنني بالتأكيد حين أحتاج إليها لن تكون الكتب والمخطوطات بالقرب مني، وقد صح توقعه بالفعل، فرسمت مثلثًا كبيرًا بالملح الصخري على الأرض، وبالطبشور الأسود رَسَمْتُ بمنتصفه دائرة كبيرة وبداخلها دائرة أصغر قليلًا، ورسمت بينهما رموزًا أو حروفًا بلغة لا أعرفها لكنني تذكرتها بسهولة، وبداخل الدائرة الداخلية رسمتُ نجمة ثمانية وظلَّلْت نصف كل ضلع من أضلاعها وظلَّلْت دائرة صغيرة في مركزها ووضعت بها القليل من نبات المريمية الجاف وقطرتين من زيت السذاب، وعلى رأس كل ضلع من أضلاع النجمة وضعت شمعة غليظة، وفي الطرف الأعلى للمثلث رسمت ثعبانًا دائريًا يلتهم ذيله وبداخله جمجمة ما ذات وشوم وقرنين رفيعين وبدون الفك السفلي، وفي طرفي المثلث الأخريين دوائر صغيرة بها بعض الرموز القديمة، وقطعت ورقة إلى ثمان قطع وكتبت في كل قطعة منها اسم مكان من الأماكن التي اعتقدتُّ أنه يمكن لوالدي احتجاز الرجل بها ووزَّعتُها على الجزء المظلل من أضلاع النجمة ووضعتُ على كل ورقة منها قطرة من زيت السذاب وجرحت يدي وقطرت قطرة من دمي على كل ورقة.

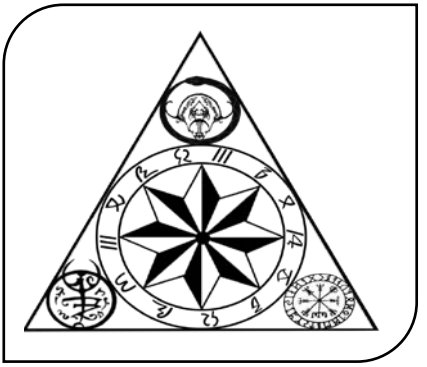

وعندما انتهيت نظرتُ من النافذة فوجدت الشمس قد بدأت أشعتها الذهبية تتلألأ فوق البنايات المجاورة فانتظرت حتى استوضحت قوسها الأصفر يبرُز من خلف إحدى البنايات فأغلقتُ النافذة بإحكامٍ ووضعتُ عليها أغطية الفراش لتحجب ضوء الشمس قدر الإمكان وأشعلت الشمعات الثماني وجلست القرفصاء بجوار الدائرة وأخذت أردد "سينداب جرزيم شوقي سالوب ديب.. سينداب جرزيم شوقي سالوب ديب" بنفس النغمة التي تعلمتُها.

ردَّدتُها مرارًا وتكرارًا وبإصرارٍ حتى اشتعلت الأوراق التي وضَعتُها في أضلاع النجمة.

اشتعلت جميعُها إلا واحدة فقط تحركت بفعل نسمة هواء خفيفة وانتقلت إلى الجزء غير المظلل من نفس الضلع، فالتقطتُّها بسرعة وقرأت المكان الموجود بها وأصابتني القلق عندما رأيتُ مُدَّون بها "قبو منزل المنصورية"، كان احتراق الورقات التي تحوي بقية

الأماكن وبقاء هذه وانتقالها إلى الجزء غير المظلم من ضلع النجمة يعني أن والدي مازال يحتجزه في قبو المنزل، ويعني أيضًا أنه لابد لي من اقتحام المنزل لكي أحظى بمحادثتي التي أتطلع إليها معه.

ولكن هذا لن يوقفني، صحيح أن المنزل مُحاطٌ بالحراسة لكنَّه طالما كان كذلك وكنت أستطيع التسلل منه والعودة إليه بدون علمه، ففي النهاية لم أكن الفتى المطيع الذي كان يظنه والدي، بل كنت كأي مراهق يسعى لقضاء بعض الأوقات مع أصدقائه بعيدًا عن عيني والده ولسانه الذي يقطر تأنيبًا ولومًا.

عزمتُ أمري وانطلقت حتى وصلت إلى مقصدي، والتففت حول السور القديم للمنزل الذي ظهرت عليه أثار الزمن وقصدتُ جزءًا منه بعينه وأخذْتُ أتحسَّس الشقوق الصغيرة التي صنعتها في صغري لكي أتمكن من تسلُّق السور بسهولة، لم تكن شقوقًا كبيرة لتُلاحظ ولكنها كانت تكفي مع ما تبقى لي من رشاقة لأعتلي السور في ثوانٍ ثم قفزت إلى الجانب الآخر وتدحرجت على الأرض مرة أو مرتين ثم وثبت على قدمي في خفة.

لابد أن السنوات التي أمضيتها في السجن قلَّلَت كثيرًا من لياقتي فقد كنت أقفز واقفًا على قدمي ولم أكن أشعر بتلك الآلام في عظامي من قفزة بسيطة كتلك.

تسلَّقت المبنى من الخلف وسِرْتُ قليلًا على الإفريز لأصل إلى نافذة غرفتي، والتقطتُ سكينًا من جيبي وفتحتها بسهولة كما كنت

معتادًا في صغري، وتسلَّلتُ إلى الداخل وأغلقت النافذةَ في هدوءٍ وأخذت أتطلع إلى غرفتي القديمة، كانت مُرتَّبَة ونظيفة ويبدو أنه يتم الاعتناء بها بشكل يومي، فلا أثر لحبة غبار واحدة على الأثاث، فتحت خزانة ملابسي فوجدتها مرتبة بعناية ويفوح منها رائحة معطِّر ملابس قوية، فرَّغتُ أحد الأرفف من الملابس وقمت برفع الرفِّ الخشبي من مكانه ووضعت يدي على منطقة بعينها خلفه وضغطتُها لتفتح درجًا خفيًا أسفله التقطت منه رزمتين كبيرتين من النقود كنت قد احتفظت بهما دون علم والدي لأشتري هدية لحبيبتي التي تعرفت إليها في الجامعة.

أعدتُّ كل شيءٍ إلى موضعه وتسلَّلت إلى قبو المنزل، تلك المنطقة الخاصة بالسيد (شوقي) والتي لا يجرؤ أحد على دخولها إلا بإذنه، وكنت من القلة الذين سُمح لهم بهذا بعد خروج ابن عمي من المنافسة، استخدمت مصباحًا يدويًا لكي أرى وسط هذا الظلام، كان القبو مُقَسَّم إلى ساحة واسعة وغرفتين، فتحت الغرفة الأولى ووجَّهت مصباحي إلى داخلها فوجدت السيد (شوقي) جالسًا على مقعده كالمعتاد واضعًا قدميه على المكتب وما إن لمحني حتى قال بهدوء غير متوقع: مذهل، أعترف أن هذا أبكَرُ من المتوقع بأسبوعين على الأقل.

سألته في دهشة: هل كنت تتوقع قدومي؟

- بالطبع، فأنا أعلم أنه أُطلِق سراحك منذ أسبوع، أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح.

نهض من جلسته وقام بتحضير كوبين من الشاي كما اعتاد أن يفعل كلما أتيت إليه في مكتبه وهو يقول: اجلس يا (يوسُف)، اجلس وأخبرني ما الذي تتوقع أن تجده بمجيئك إلى هنا؟

- (ديباك) هو حقي وأنت تعلم ذلك، كل ما فعلتُه أو تعلمتُه منذ صغري كان ليجعلني لائقًا لذلك، كان ليجعلني لائقًا لأكون مثلك.

قام بصبِّ الأكواب وناولني إحداها قائلًا: وكيف تتوقع الحصول عليه؟

تناولته منه وقلت: الحقيقة أنني كنت أود أن أسألك أنت هذا السؤال، فكيف لي الحصول عليه بعدما سرقه مني والدي، لا يمكن توريثه قبل أن يبلغ المائتي وعشرين عامًا.

- هذا صحيح، لا يمكن أن يورِّثه قبل أن يبلغ المائتي وعشرين عامًا، ولكن هذا في حال أني ورَّثتُهُ له بالفعل.

سألته في دهشة: ألم يحصل عليه؟

- لا يمكنه إجباري على هذا. ولكن في الحقيقة أنني بدأت أضعف وليس أمامي الكثير من الوقت لذلك كنت أنتظرك بفارغ الصبر.

- إذن كيف نجا من الرصاصتين اللتين أصابتاه في مقتل؟

- ليست كل المعجزات سحرية يا (يوسُف) هناك أيضًا معجزات طبية.

- إذن يمكنك تمريره لي؟

- بالفعل يمكنني ذلك ولكن هناك أمرٌ أخير يجب عليك القيام به.

- سأفعله أيًا كان.

- اشرب شايك أولًا وحاول أن تفهم ما سأقوله جيدًا.

تجرعته كله في ثوان وقلت: ما الذي يتوجب عليَّ فعله؟

- اقتلني.

قلت في فزع: ماذا؟

كرَّر: اقتلني.

صحت في غضب: لن أفعل هذا بالتأكيد.

قال في برود: إذن انصرف فليس لك شيء هنا.

- وما علاقة قتلك بهذا؟

- وماذا تظن أنها الطقوس؟ احتفال من نوع ما؟ هذه هي الطقوس بكل بساطة، اقتلني تحصل على ما تريد.

- ولكن على حد علمي أنه لا يمكن قتلك.

- في الغرفة المجاورة يوجد الخنجر الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك.

- ولماذا لم يقتلك أبي ويحصل عليه طالما أن الأمر بهذه السهولة.

- لأنه لا يمكن لأحد فتح هذه الغرفة إلا أنا وأنت مجتمعين، أنا بصفتي (ديباك) وأنت بصفتك الوريث بعد أداء تعويذة معقدة،

وكما ترى أنا محتجز في هذه الغرفة منذ ما يقارب السنوات السِّتِّ لا أستطيع الخروج منها، وأنت لن يمكنك أداء التعويذة بمفردك.

- ولكن كيف استطاع أن يحتجزك؟

- هذا ما عليك معرفته، لابد أن تخرجني من هنا لنحصل على السكين التي يمكنك قتلي بها.

- ولماذا يجب عليَّ قتلك، أليس من المفترض أن تنضم إلى سلفك؟

- لا تقلق يا ولدي سأنضم إليهم بطريقة ما، فللحياة أشكال كثيرة سوف تتعلمها بعدما تبلغ غايتك.

- وكيف يمكنني إخراجك من هنا؟

- فتح أحد أدراج المكتب وأخرج منه ورقة مطوية وقال: يمكنك البدء من هنا، على الأرجح أن التعويذة التي يقيدني بها جاء بها من هناك، عندما تقدم الملكة نذورها ستكون العصا هي دليلك إلى ما تريد، هيا اخرج من هنا سريعًا فوالدك على وشك الوصول.

- ولكن...

صاح بصرامة: قلت اخرج من هنا.

خرجت من القبو بسرعة وتسلَّلت إلى غرفتي لأخرج منها كما دخلت وبمجرد دخولي إليها فوجئت بوالدي الذي نظر إليَّ بدهشة وقال: كيف دخلت إلى هنا؟

صحت في غضب: أهذا هو كل ما يهمك؟ كيف دخلت إلى هنا.

صاح في هياج: ماذا كنت تفعل؟ هل كنت في القبو؟

كان غضب الدنيا يملأ صدري إلا أن الكلمات اختنقت في حلقي ولم تستطع أن تعبر له عن مدى كراهيتي له، فوقفت ساكنًا ولم أرد، وسكن هو الآخر وهو ينظر إليَّ نظرة اعتقدت لوهلة أنها نظرة اشتياق إلا أن ما فعله بعد ذلك أثبت أنني كنت مخطئًا للغاية، فلقد أخرج مسدسه وصوَّبه نحوي وأطلق الرصاص.

احتكَّت الرصاصة بعنقي وسالت الدماء منه بغزارة فقفزْتُ تجاهه ودفعته بكلتا يداي ليسقط أرضًا وتجاوزتُه مندفعًا نحو النافذة وفتحتها بسرعة وقفزت منها متفاديًا رصاصته الثانية التي عبرت بجوار كتفي، وانطلَقْتُ تجاه ذلك الجزء الخاص من السور وتسَلَّقتُه بسرعة وقفزت، ولم أكد أستقِّرُ على قدمي حتى انطلقتُ أعدو بكل قوتي حتى ابتعدت قليلًا فتوقَّفتُ ومزَّقتُ جزءًا من قميصي وضغطته على موضع الجرح بقوة ومزقت جزءًا آخر وربطته به.

عدت إلى حجرتي في الفندق المتواضع الذي أقطن به بعد أن ابتعت من إحدى الصيدليات ما أضَمِّد به جرحي وسط نظرات الارتياب في عيني الصيدلي، كنت أستشيط غضبًا ومشهد والدي وهو يطلق النار عليَّ ويكاد يصيبني في مقتل يتكرر أمام عيني مرارًا وتكرارًا.

ارتفع رنين الهاتف المحمول فأجبت بسرعة لأستمع إلى صوت الرائد (خالد) يسأل: أين أنت؟

أجبت وأنا أنزع قطعة القميص المتشبعة بالدماء من على عنقي: في أحد الفنادق برمسيس، لماذا لم تتصل بي حتى الآن؟

تجاهل سؤالي وقال: لقد أبلغ والدك عن اقتحامك للمنزل منذ قليل، هل حدث هذا بالفعل؟

- نعم، كنت مضطرًا إلى...

قاطعني قائلًا بحدة: أنت أحمق، هل تريد العودة إلى السجن مرة أخرى؟ أعطني عنوانك.

أعطيته العنوان وأخبرته بحاجتي إلى ملابس بشكل عاجل، وأخذت أضمد جرحي ولم تمض ساعة واحدة حتى حضر ومعه قميص وبنطال جديدان وبمجرد أن دخل الحجرة بدأ في الصياح بحدة: أنت تتصرف ببلاهة وبشكل غير مدروس.

صحت بدوري: وأنت لم تجب اتصالاتي ولم تحاول الاتصال بي، لقد ظننتُ أنك لم تصدقني وقرَّرتَ تجاهلي.

تابع صياحه: يجب أن تعرف أن والدك لن يتورع عن إلقائك في السجن ثانية.

قلت بمرارة: أعلم هذا فلقد فعلها من قبل بالإضافة إلى أنه حاول قتلي منذ قليل.

انتبه إلى الدماء التي تغرق ملابسي والضمادة على عنقي فسألني: ماذا حدث؟

أخبرته بما حدث وبإطلاقه الرصاص عليَّ بدمٍ بارد، فعَلَت وجهه علامات الدهشة وهو يقول: لابد أن قصتك بخصوص الخلود هذه حقيقية بالفعل فلن يطلق الرجل الرصاص على ابنه على أمر أقل من هذا.

صحت في استنكار: وهل ترى أن هذا مبرِّر مقبول لسجني ومحاولة قتلي.

- فلنكن واقعيين، قد يقتل الأخُ أخَاهُ والولدُ أباهُ في خلاف على بعض النقود فما بالك بخداع الموت إن كان هذا ممكن من الأساس.

سكت قليلًا ثم تابع: على ماذا تحتوي الورقة التي أعطاك إياها (شوقي)؟

أخرجت الورقة من جيبي كانت قد تلوثت ببعض الدماء إلا أن الكتابة لا زالت واضحة.

"معبد (أباداماك).. النقعة.. شمال السودان"

صاح في حدة: لأكن صريحًا معك يا (يوسُف)، أنا أبحث في جريمة قتل، أريد إثبات قتل والدك لهؤلاء الناس، وليس من المنطقي أن أتطرق لترهات الخلود والمعابد هذه، سوف أساعدك طالما أن الأمر مرتبط بجرائم القتل التي قام بها والدك، أما الذهاب إلى المعابد وأمور السحر هذه فلا علاقة لي بها.

- إذا كنت تبحث عن دليل فلن يساعدك سوى السيد (شوقي)، ولابد من تحريره حتى يستطيع مساعدتنا في هذا.

- هذا إن كان السيد (شوقي) هذا له وجود من الأساس وليس مجرد خدعة.

- إن كنت تظنني كاذبًا، فلمَ تساعدني؟

- لأنني طننت أنه يمكنك مساعدتي في إدانة والدك، ولكن من الواضح أنني كنت مخطئًا.

وأخرج من جيبه مبلغًا من المال وتركه على الطاولة وقال: يؤسفني ما مررتَ به يا (يوسُف) ولكن لا تتصل بي إلا إذا كنت تمتلك دليلًا على إدانة والدك.

******

اقتحم (مختار) والد (يوسُف) الحجرة التي يحتجز بها (شوقي الكيال) في عنف وهو لايزال يمسك بسلاحه وقال في حدة: بماذا أخبرت (يوسُف)؟

تطلع إليه (شوقي) في برود وقال: أرى أنك قابلت ولدك أخيرًا بعد طول غياب.

ثم نظر إلى كتفِهِ وإلى السلاح بيده وقال: آثار البارود مازالت على يدك كما أن الدماء على كتفك ليست لك، من الواضح أنك رحبت به بحفاوَة.

- ماذا أخبرته يا (شوقي)؟

- ليس بشيء جديد، من البديهي أن يسعى للحصول على ما ربَّيتَه أنت على أنه حقه.

- لن يحصل عليه.

- أعتقد أنك ربَّيتَ ولدَك ودَرَّبتَه جيدًا، لننظر نتائج هذا التدريب ولْنَرَ إن كان سينجح فيما يسعى إليه.

- قلت لك أنه لن يحصل عليه، وإذا علمت أنك تحدثت إليه ثانية، ثق أنك ستقضي الوقت المتبقي لك في أسوأ ظروفٍ ممكنة.

- لقد عشت الكثير من الوقت يا (مختار)، لن أهتم ببعض الأعوام القليلة المتبقية كيف سأقضيها، وأنت لا تعلم إن كانت مخاطرتك هذه ستنجح أم لا.

- ستنجح، حتى وإن اضطررت إلى قتل كل من يقف في طريقي.

- ليس الكل، وإلا لما اضطررت إلى الوقوف هنا أمامي الآن، هل تظن فعلًا أنني أصدق أنك أخطأت في إصابته؟

- لا لم أخطئ، لقد تعمَّدتُ إصابته فقط، ولكن ثق تمامًا أنني إذا اضطررت إلى قتله فسأفعل، وبدون تردد.

قالها وغادر الحجرة، تاركًا القلق يرسم علاماته على وجهه وهو يفكر: هل يمكنه فعلًا أن يقتل ولده؟ أم أنه يقوم بتهديده فقط ليبعده عنه؟

وفي كل الأحوال لقد استطاع بفعلته هذه أن يربح هذه الجولة.

******

٣. اختطاف

كانت الشمس على وشك المغيب، أو هكذا ظننت مع تلك الأشجار الغُلب المثقلة بثمارها، والتي تتسلل من بين أغصانها الكثيفة ومضات بسيطة من الضوء، كنت أنطلق وسط الأشجار الضخمة أشعر بالخطر المقترب بكل كياني، وأشعر باحتكاك جسدي بالأرض وكأنني كنت أزحف هربًا من هذا الخطر، أسمع صوت خطواته تقترب أكثر وأكثر، حتى وثب أمامي فجأة مُطلقًا زئيره الذي سكنت الغابة كلها رهبةً من صاحبه، كان ليثًا ضخمًا أخذ يدور حولي في ترقُّبٍ متأهبًا للانقضاض، حاولت مهاجمته أولًا إلا أنه وثب نحوي بسرعة، وما إن استقرَّت أنيابه في جسدي حتى شعرت بألم رهيب وكأنني في مركز انفجار ضخم يسحق جسدي سحقًا.

أفقت من نومي مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم وأنا ألهثُ بشدَّةٍ لاعنًا ذلك الوغد الذي لعنني وأصابني بتلك الكوابيس المزعجة.

كان هذا كابوسًا جديدًا غير الذي كنت أراه خلال السبعة أعوام المنصرمة، ولكنه انتهى نهاية مشابهة، أسلوب القتل مختلف ولكن الشعور بالألم مماثل، يومًا ما سأعرف من قام بهذا وسأوقفه، ولكن هناك ما هو أهم الآن من بعض الأحلام المزعجة.

لقد أُوصِدَت الأبواب أمامي من جديد، فذلك الضابط الحقير لم

يعد يجيب اتصالاتي، والسيد (شوقي) يريد إرسالي إلى السودان في مهمة مبهمة وغير محددة، ولم يسمحوا لي باستخراج جواز سفر إلا بشهادة تأدية الخدمة العسكرية التي لا أملكها أو باستمارة تفيد أنني لازلت أدرس بجامعةٍ لم أعد أرتادها، كان لابد لي من مقابلته مرة أخرى لأفهم منه ما يريد، ولكن عندما حاولت وجدت أبي قد وضع حراسة بطول سور المنزل ولم أستطع التسلُّل كالسابق، لم يكن أمامي سوى أن أبحث عمَّن يدخلني.

رحت أعتصر ذهني محاولًا الوصول إلى شخص يمكن أن يصدق روايتي من روَّاد المنزل، إلا أنه كان من الصعب أن يستوعب أحدهم ما سأقول، كان هناك أحدهم لي علاقة طيبة به ولكنني لا أعرف إن كان سيصدقني أم لا، كان يدعى الأستاذ (رضوان) مدرس اللغة العربية وصديق والدي الصدوق منذ أن كانا طفلين، ولاعب الشطرنج المحترف والوحيد الذي كان يضاهي السيد (شوقي) في هذه اللعبة، ليس من الضروري أن يدخلني ولكن من الممكن أن يصل إليه ويستوضح منه الأمر أكثر، ولكن هذا يتوقف على تصديقه لي.

ارتديت ملابسي وانطلقت إلى ميدان محمد علي قاصدًا مسجد المحمودية، ذلك المسجد الحجري العتيق المبنِي على الطراز المملوكي كما أخبرني الأستاذ (رضوان) حين كان يصْطَحِبني لأداءِ صلاةِ العِشَاءِ كلما كنت أرافق والدي لزيارته، دخلت المسجد مع صوت المؤذَّن يتردد في أرجاء الميدان، صلَّيت ركعتين بعد أن توضأت وجلستُ

منتظرًا إقامة الصلاة مستندًا على جدار المسجد تحت صفَّينِ من النوافذ التي تعلوها مُقَرنَصات مُزخرفةٍ، ورحتُ أرقب كل من يدخل من بوابَتَي المسجد المتقابلتين حتى لمحتُه يدخل من البوابة الشرقية، كنت موقنًا بأنني سأجده هنا فهو لم يتخلف يومًا عن أداء صلاة العشاء به إلا حينما كان يتواجد في مكان آخر.

بعد أن انتهينا من أداء الصلاة ذهبت إليه وجلست بجواره مادًّا يدي إليه لأصافحه قائلًا: السلام عليكم.

رد السلام وصافحني وهو يتطلع إليَّ بتساؤل باحثًا في ذاكرته عن هذا الوجه حتى صاح بانزعاج: أنت!

قلت في صوت خفيض: أرى أنك تذكرتني، من فضلك لا أريد سوى عشر دقائق من وقتك وبعدها إن شئت أن تطردني فافعل.

لوهلة ظننت أنه سيصرخ في وجهي ويأمرني بالذهاب إلا أن التفاتةً سريعة منه للمصلين من حولنا جعلته يقول في ضيق: اتبعني.

تبعتُه في صمت وما إن ابتعدنا قليلًا عن المسجد حتى صاح في حدة: ما الذي يعنيه قدومك إلى هنا؟ أنت قاتل.

أجبت محاولًا التحكم بأعصابي: هل لك أن تسمع مني ثم تحكم بعد ذلك بعدلٍ وإنصاف كما عودتَّني، أليس هذا هو المفترَض شرعًا، أن تسمع من المتهم قبل أن تدينه.

لاقَى الطرقُ على أوتارِ التزامه وتدَيُّنه استجابة سريعة، فانخفض صوتُه ولانت حدَّته وقال: أنا لست قاضيًا يا (يوسُف) حتى أدينك أو

أبرِّئُك، ولكن تعالَ معي إلى المنزل ولنستمع لما تريد أن تقول.

وصلنا لمنزلهِ وبدأتُ في سرد قصتي من بدايتها ونحن نتناول كوبين من الشاي بالنعناع الساخن الذي اشتقتُ إلى رائحتِهِ النفَّاذة قبل مذاقه الرائع، وحينما انتهيت قال لي في حدة: وتظن أنني من الممكن أن أصدق هذا، بالتأكيد قيامك بقتل عمِّك أقرب إلى العقل بكثير مما تدَّعي.

- وجميع من قُتلوا من عائلتي، هل قمتُ أنا بقتلتهم وأنا سجين؟

- لم يخبرني والدك بهذا الأمر، هل أنت على يقين من مقتلِهِم؟

- بالطبع، لقد تأكدتُّ من مقتلهم بعد أن أخبرني به ذلك الضابط.

لم يُجب فسَكتُّ قليلًا لأفكر في طرف خيطٍ آخر حتى التقطتُّ أحدهم وقلت: حسنًا، في رأيك من يكبُر الآخر، والدي أم السيد (شوقي)؟

- بالطبع والدك.

- ولم تندهش يومًا لتعامل والدي معه بهذا الاحترام والتبجيل، بل إنه لا يناديه سوى بالسيد (شوقي) في حين أنَّ الأخير يناديه باسمِهِ بلا ألقاب؟

- لا أنكِر أن هذا الأمر لفت انتباهي لكنَّهُ لا يُثبِت شيئًا ممَّا تقول.

- متى آخر مرة قابلت فيها السيد (شوقي)؟

- كان قبل قيامك بقتل عمك ولقد قام بالسفر خارج البلاد لأنه لم يتمكن من العيش في المنزل بعد فعلتك.

- اتصل بوالدي الآن واطلب منه رقم السيد (شوقي) لتطمئن عليه وانظر ماذا يقول؟

همَّ بقول شيءٍ ما إلا أنني استبقتُه قائلًا: فقط افعل هذا، وبعدها سأنصرف.

تردَّد قليلًا ثم أخرج هاتفه وقام بالاتصال بوالدي مُفعِّلًا مكبر الصوت وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث حتى سأله الأستاذ (رضوان) عن السيد (شوقي) وطلب منه رقم هاتفه ليطمئن عليه، فتلعثم والدي بشدة وقال: لقد كان معي ولكنني فقدته فلقد سُرِق هاتفي منذ فترة.

ضحك الأستاذ (رضوان) وقال: من الجيِّد أنك لم تفقد رقم هاتفي أنا أيضًا وإلا كان سيكون لي تصرُّف آخر معك.

قال والدي فجأة: هل زارك (يوسُف)؟

أجاب مصطنعًا الدهشة: (يوسُف)، أليس في السجن؟

- لقد خرج منذ بضعة أيام وجاء إلى المنزل لكني طردته، فلم أعد أطيق النظر إلى وجهه بعد ما فعله.

- أنت مخطئ، لابد أن تتحدث معه فلايزال ولدك، وليس لديه مكانًا آخر يلجأ إليه.

- لا، لم يعد ولدي بعد أن قام بقتل أخي، وإن حدث يومًا وقام بزيارتك فلتخبره أنني سأقتله بنفسي إن عاد إلى هنا مرة أخرى.

- أنت أعقل من هذا يا (مختار)، لن يصل الأمر إلى هذا بإذن الله.

وأنهى المكالمة ونظر إليَّ فقلت بسرعة: هل تصدِّق أنه أضاع رقم هاتفه؟

هزَّ رأسه نافيًا وقال: لا، والأغرب أنه استنتج أنك زرتني بمجرد سؤالي عنه، ولكن هذا أيضًا لا يثبت شيئًا.

- وأنا لا أريد أثبت شيئًا كل ما أريده أن تساعدني في الوصول إلى الرجل وعندها سيحكي لك بنفسه كل شيء.

- وكيف أفعل هذا؟

- حاول أن تتسلَّل إلى السيد (شوقي) ستجده بمكتَبِهِ بقبو المنزل.

- للأسف يا ولدي لن أستطيع فعل هذا، حتى وإن كان في استطاعتي ذلك فلن أساعدك لتضيع ما تبقى من شبابك في صراعٍ واهٍ على شيء لا يستحق، كفاك ما فقدتَّه من سنواتٍ في السجن.

- هل تظن أن هذا الأمر لا يستحق؟

- لا أظن ذلك يا ولدي، بل أنا على يقين منه، فما تدَّعي عن الخلود أمر غير ممكن فهو يتنافى مع قوله سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموْتِ﴾ أنت بنفسك قلت أن من يبلغ المائتين والعشرين لا يُرَى بعد ذلك، هذه محاولة خبيثة للاحتفاظ بالشباب تَمَّت بالاستعانة بسحرٍ محرَّم أو شيطانٍ مارد، أنت ووالدك مُضَلَّلان فالخلود يا ولدي لا يناله المرء إلا بأعماله، هناك من ماتوا قبل مئات السنين وهم أحياء في

ذاكرة التاريخ نظرًا لما قدَّموه، ولقد أخبرنا رسولنا الكريم بما يمكن أن نفعله لنخلِّد ذكرانا بعد موتنا وفي نفس الوقت ننال الأجر عليه بقوله (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)، فالخير الذي يبقى بعد موتك هو الخلود الحقيقي، أما غير ذلك فهو هباء، فلم يسمع أحدٌ عمَّن سبقوك من عائلتك للخلود كما تدَّعي ولا أظن أن لهم خيرًا كثيرًا تركوه قبل اختفائهم ليُخلِّد ذكراهم ويبقى لآخرتهم.

- ولكن يا أستاذ...

قاطعني قائلًا: اترك هذا الأمر يا ولدي، واتركني أتكَفَّل بأمر إتمامك لدراستك وسأجد لك عملًا يساعدك على الحياة حتى نصلح الأمور بينك وبين والدك.

أجبت بحدة: أنا أكرهه، لا أريد أن أصلح شيئًا معه.

- حسنًا، فلتهدأ ولنتناول العشاء ثم نرى ماذا سنفعل.

انتظرته في مكاني حتى انتهى وزوجته من إعداد المائدة وبينما كنا نتناول الطعام ارتفع رنين جرس الباب فذهب لينظر من القادم وما إن فتحه حتى فوجئ بأربعة رجال ملثمين يرفعون السلاح في وجهه فتراجع في خوف قائلًا: ماذا يحدث؟

أَلْصَقَ أحدُهم فوهة سلاحه بصدغه محذِّرًا إياه من التفوُّهِ بكلمة، واتجه الآخرون نحوي وصاح أحدهم مصوِّبًا سلاحه في وجهي: قائلًا: حركة واحدة وسأطلق النار.

وثَبْتُ لاكمًا أحدَهم في وجهِهِ بقوَّةٍ والتفَتُّ موجَّهًا ركلةً إلى آخر وقبل أن تستقر قدمي على الأرض اصطدَمَت قبضة أحدهم بوجهي وضربني آخر على مؤخرة عنقي بكعب سلاحه فأظلمت الدنيا في عيني وسقطْتُّ أرضًا فاقد الوعي.

******

وقفتُ أمسِك بيدي حربة خشبية موصولٌ بطرفها قطعة معدنية حادة وأنظر في ترقب إلى ذلك الرجل الأفريقي داكن البشرة الذي يمسك بحربة مماثلة وهو شبه عارٍ لا يرتدي سوى قطعة من جلد النمر تستر عورته، وتغطي جسده ووجهه مجموعة من الأصباغ مختلفة اللون وينظر إليَّ بترقب هو الآخر، كنا نقف في مركز دائرة مُشَكَّلة من مجموعة من الرجال الأفارقة الذين لا يختلفون عن خصمي كثيرًا في هيئتهم، يصدرون نغمات تحفيزية منتظمة بشكل جماعي وينتظرون بدء القتال الذي لم ينتظر طويلًا، كانت البداية ضربة مني وجَّهتها إلى خصمي إلا أنه تفاداها ببراعة وضربني بحربته ضربةً قوية أوقعتني أرضًا، فهمَّ باستغلال تعثُّرِي وهاجمني بحربته إلا أنني سبقته وغرست حربتي في بطنه بقوة، بدا وكأنه لم يشعر بها وتابع هجومه وغرس بدوره حربته في صدري، أحسست بصدري يتمزق وصرخت من الألم فسحب حربته سريعًا وهوى بها مرة أخرى على صدري، خارت قواي تمامًا مع دمائي التي أغرقت الأرض من تحتي وحاولت يائسًا إبعاده بقدمي قبل أن يهوي بالضربة الثالثة

فركلتُه في قدمه بقوة وما إن لامست قدمي قدمَه حتى شعرت بجسدي ينسحق كالعادة وكأنني في مركز انفجار وأفقت من نومي وأنا أتصبب عرقًا ورحتُ أتحسس موضع الضربتين في صدري قائلًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

كابوس آخر ينتهي بقتلي بطريقة مختلفة ولكن نفس الشعور بالألم بنفس الطريقة، همَمْتُ بلعن من لعنني إلا أن الكلمات وقفت في حلقي حينما سمعت ذلك الصوت يقول: هل لا زلت ترى ذلك الكابوس؟

نظرتُ تجاه مصدر الصوت فوجدتُّه جالسًا على مقعدٍ خشبي في نهاية الغرفة التي استفقت بها يسألني بتبجُّحٍ عن أحلامي فقلت في غلظة: ليس هذا من شأنك.

- بل هو شأني يا (يوسُف) فأنا والدك إن كنت لاتزال تتذكر هذا.

تحسَّست جرح عنقي وقلت: حتى لو نسيت، فلقد تركت لي أثرًا أتذكرك به ما حييت، كان لابد أن أتوقع هذا، لقد استنتجت أنني عند الأستاذ (رضوان) عندما سألك عن السيد (شوقي) فأرسلت رجالك لاختطافي.

- ليس لاختطافك، وإنما لإحضارك حتى يتسنَّى لنا التحدث قليلًا.

- ليس هناك أي حديث بيني وبينك، أنت قاتل، لم تكتفي بقتل أخيك ولصق تهمة قتله بي، بل قتلت باقي عائلتك واستوليت على ممتلكاتهم، أنت رجل مختل.

صاح بغضب: تكلم معي بأدبٍ يا ولد، لا يحق لك...

قاطعته صارخًا: لم يعد يحق لك أنت أن تحدثني هكذا بعد ما فعلت.

صمتَ قليلًا ثم قال: ماذا أخبرك السيد (شوقي)؟

قلت باشمئزاز: إذن فهذا هو ما تريد معرفته؟ هذا هو كل ما يهمك الآن؟

- لم تكن نيتي أن يكون الحديث بيننا هكذا، إلا أنك لا تترك لي خيارًا، أخبرني ماذا يريد منك هذا الوغد؟

لم أجِبهُ فأخرج الورقة التي كانت بجيبي وقال: عن ماذا طلب منك أن تبحث هنا؟

- قلتُ لك هذا ليس من شأنك.

- أنت لا تعرف في ماذا تقحم نفسك.

- وما أدراك، هل ذهبت إلى هناك من قبل؟

- بلى.

قلتُ في زهو وكأنني اكتشفت اكتشافًا عظيمًا: إذن فبالفعل أنت حصلتَ من هناك على تلك التعويذة التي تحتجزه بها، لذا من البديهي أن أجد هناك أيضًا التعويذة التي يمكن أن أحرِّرُه بها.

- إذن فهذا هو ما يريدُهُ منك، يريدُكَ أن تبحث عن وسيلة لتحريرِه، أنت لا تدري ماذا تفعل أيها الأخرق.

- يكفيني أن أفسد عليك خطتك، لا أريد ما هو أكثر من هذا.

- حسنًا إذن، من الواضح أن التحدث معك لن يجدي.

ونادي على أحد الرجال بالخارج وقال بصرامة متعمِّدًا أن يُسمعني: أحضر له كل ما يحتاج ولكن احرص على ألا يغادر الحجرة، وإن حاول الهرب لا تتردد في إطلاق النار.

قلت في كراهية: لن أبقى سجينك هنا طويلًا، حتى لو اضطررت إلى قتل نفسي.

قال دون أن ينظر إلى: افعل هذا وستُسدي إليَّ خدمة جليلة.

******

دلف الرائد (خالد السيوطي) إلى مكتبه في مديرية أمن الجيزة وجلس ليتابع أوراق ملفٍ ما باهتمام وطلب من جندي الحراسة إحضار إفطاره المعتاد مع كوبٍ من الشاي.

ذهب الجندي سريعًا ليجلب ما طلب إلا أنه بدا وكأنه تذكر شيئًا فعاد مسرعًا وقال: سيادة اللواء (عادل) طلب مني إخبارك بالذهاب إلى مكتبه فور حضورك.

قال بحدة: ولماذا لم تخبرني بهذا حتى الآن أيها الغبي؟

ونهض من فوره وذهب إلى مكتب اللواء وهو يتمنى ألَّا يكون قد قام باكتشاف تحقيقه الذي يجريه حول (مختار الكيال).

طـــرق الباب وانتظر ثوانٍ حتى سمـــع صوتًا من الداخـــل يقول: ادخل.

- صباح الخير يا (عادل) باشا.

- صباح النور يا (خالد) بك، تفضل.

جلس (خالد) وأخذ يتطلع إلى رئيسه في صمت وهو يطالع بعض الأوراق حتى رفع عينيه إليه وقال: أخبرني يا (خالد)، ألم تجرِ تحقيقًا حول (مختار الكيال) منذ بضع سنوات.

أدرك (خالد) أن أمره قد انكشف فقال: نعم يا سيدي ولكن...

قاطعه الرجل قائلًا: ولم تستطع إثبات أي من الاتهامات التي وجَّهتَها إليه.

أجاب (خالد): نعم يا سيدي.

- وتلقيتَ أمرًا مباشرًا بإغلاق التحقيق بعد أن وضعتنا في موقف محرجٍ مع وزير الاستثمار الذي يعتبر مؤسسة الكيال من أهم المؤسسات الاقتصادية في الدولة، واتهمنا بأننا ننشئ مناخًا طاردًا للاستثمار.

- نعم يا سيدي.

- ومع ذلك خالفت أمرًا مباشرًا وقمت بإعادة فتح التحقيق مرة أخرى دون علم رؤسائك، هل أستنتج من هذا أنك حصلت على دليلٍ جديد؟

- لقد أُفرِج عن ابن (مختار الكيال) منذ فترة ولقد تواصلت معه على أمل أن يكون لديه دليل جديد يساعدني على إثبات التهم.

- أليس هذا الابن هو الذي قتل عمه؟

- إنه يدَّعي أن والده هو من قام بقتله.

- وبالطبع سنصدِّق ادِّعاءَهُ ونُكذِّب الأدلةِ والشواهدِ التي أدَّت إلى الحكمِ عليه، والتي منها بصماته على سلاح الجريمة وشهادة أصدقائه أنه لم يكن معهم كما كان يدَّعي، أخبرني إذن ما السبب الذي ادَّعاه ليثبت لك أن والده قام بقتل شقيقه واتهم ولدَه الوحيد بجريمته ليزجَّ به في السجن؟

بالطبع لم يخبره عما ادَّعاه (يوسُف) وقال: لقد قال إن ثمَّة خلافات مالية بينهما.

- لقد تحدثتُ مع (مختار الكيَّال) وأخبرني أمرًا عجيبًا لم أصدِّقه في البداية، لقد قال إنه لم يدفع المصاريف الجنائية للقضية وبالتالي لم يُرفق إيصال الدفع في ملف ابنه، وهذا كما تعلم شرط أساسي للحصول على العفو بنصف المدة كما حدث مع ابنه.

- الحقيقة يا سيدي...

قاطعه الرجل ثانية قائلًا: وعندما سألت في النيابة أخبروني أن من قام بتوريد الإيصال لإرفاقه بالملف ضابطًا بمديرية أمن الجيزة يدعى (خالد السيوطي)، بالطبع الموظف يتذكر هذا جيدًا لكون مُقدِّمِه ليس من أهل المسجون ولكنَّه كان ضابطًا بالمباحث على غير المعتاد.

سكت (خالد) مستسلمًا فتابع الرجل: لقد تعاملت مع الأمر بعدم احترافية يا سيادة الرائد، سعيك لإثبات تهم واهية على الرجل جعلك تحوِّل القضية إلى أمر شخصي بل وخالفت تعليمات مباشرة

من رئيسك المباشر فقط لإثبات وجهة نظرك الشخصية مع علمك بما قد يسببه لنا هذا من إحراج.

قال (خالد) بخفوت: أعلم هذا يا سيدي، ولكن أمهلني أسبوعًا واحدًا وإن لم أجد دليلًا يُثبت اتهاماتي يمكنك إحالتي إلى التحقيق.

- لن أنتظر أسبوعًا يا سيادة الرائد، أنت بالفعل مُحال إلى التحقيق وموقوف عن العمل حتى انتهاء التحقيق، قم بتسليم سلاحك وانتظر اتصالًا لمعرفة موعد جلسة التحقيق معك، وحتى ذلك اليوم أتوقع عدم رؤيتك في هذا المبنى.

قال بجزع: ولكن يا سيدي..

- ليس هناك لكن يا سيادة الرائد، نفذ ما أُمِرتَ به.

خرج (خالد) من مكتبه وشياطين الدنيا تتقافز أمام عينيه، وعندما غادر المبنى كان قد أيقن أنه لا بديل عن التعاون مع (يوسُف) لكي ينفذ مهمته.

******

٤. قَـــايْ- آل

ثلاثة أسابيع مرت وأنا لازلت أقبع في محبسي الجديد، خرجت من سجن الداخلية إلى سجن والدي، الأمور متشابهة تمامًا، فالغرفة مجهزة بطريقة تجعلك تظن أن مصلحة السجون هي من قامت بتجهيزها، حشِيَّة موضوعة على الأرض للنوم ولا يوجد تحكم بالإضاءة من الداخل ودورة المياه الملحقة بالغرفة كانت مجردة تمامًا من أي شيء حتى من المرآة ولا توجد قطعة معدنية واحدة في الغرفة بأكملها يمكن استخدامها في مهاجمة الرجلين المسلحين الذَين تركهما والدي لحراستي، كانت هزيمتهما سهلة ولكن السلاح يعطيهما الأفضلية بالطبع، خاصةً مع أوامر والدي بإطلاق النار.

تكرَّرت الكوابيس بشكل يومي تقريبًا سبعة كوابيس بسبعة طرق لموتي ولكن في كل مرة يكون الإحساس بالانسحاق أمرًا مشتركًا، إلا أن الألم يزداد بشدة في بعضها، بعضها تكرَّرَ كثيرًا وبعضها لم أرَهُ إلا مرة واحدة.

نمَت لحيتي بكثافة مما أوحي لي بفكرة ما، استطلعت قبل البدء في تنفيذها دورة المياه جيدًا لأتمكن من تنفيذها وما إن تأكدت من بروز إطار الباب بشكل كافٍ ومن أن المسافة بين الجدارين صغيرة حتى صِحتُ مناديًا على الرجلين أني أريد حلاقة لحيتي على الفور فلم أعد أتحملها في هذا الجو شديد الحرارة، أخبراني أنهما سوف

يقومان باستئذان والدي أولًا فأسمعتهما سيلًا من السباب لهما ولوالدي فغادرا متذمرَيْن وعادا بعد ساعتين ومعهما ماكينة حلاقة كهربائية، كان من الواضح أنهما استشارا والدي فأمرهما بعدم إحضار ماكينة عادية حتى لا أستخدم الشفرة الموجودة بها.

وأمام مرآة صغيرة أحضرها الرجلين مع الماكينة وقفت في دورة المياه الملحقة بالغرفة أحلق لحيتي في وجود الرجلين يرفع كل منهما السلاح في وجهي متأهِّبًا، وبعد انتهائي همَمْتُ بإغلاق الباب إلا أن أحدهما احتجزه بقدمه قائلًا: ماذا تفعل؟

قلت بسخرية: سأقوم بحلاقة بعض الأماكن الخاصة، لا أظنك تريد مشاهدتي وأنا أفعل ذلك.

تردَّد الرجلان ونظرا إلى بعضهما البعض في حيرة، وحسَمَ أحدُهما أمرَه واختطف المرآة من يدي قائلًا: ولا أظنك أيضًا ستحتاج إلى هذه.

صفَّقتُ بيديَّ قائلًا: من الواضح أنك الأذكى هنا، أتوقع أن يصرف لك والدي كيسًا من الحلوى مكافأة لك.

وأغلقتُ الباب بقوة، وما إن أغلقته حتى قمت بسرعة بقطع سلك الماكينة وأوصلت أحد طرفيها بمقبض الباب والطرف الآخر ثبَتُّه بالعلكة التي كنت ألوِّكها في فمي تحت المقبض بسنتيمترين تاركًا جزءًا من طرفه حرًّا بحيث يلامس طرف المقبض الحر عند إدارته وأوصلت القابس بمقبس الكهرباء وتسلَّقت الباب ووضعت قدمي أعلى إطار الباب منحنيًا في وضع الركوع وفردت يدَيَّ بجانبي كالطائر

المجنَّح أدفعهما بقوة على كلا الجدارين المتقابلين لأمنع جسدي من السقوط.

بالطبع لم يسمعا أزيز الماكينة فطرقا الباب ليحُثَّاني على الانتهاء سريعًا وعند عدم ردي لفترة حاول أحدهما اقتحام المكان، وبمجرد إدارته لمقبض الباب، لامس طرف المقبض طرف السلك المعلق فأُغلقت الدائرة الكهربية وصُعِقَ الرجل بقوة، وأدي إغلاق الدائرة بدون حمل إلى حدوث دائرة قصر أدت إلى انقطاع التيار الكهربائي في المكان بأكمله.

انتظر الرجل الآخر حتى تعودَتْ عيناه على الظلام وأعطاني فرصة عن غير قصدٍ لأفعل ذلك بدوري، ثم اقتحم المكان شاهرًا سلاحه أمامه وأخذ يبحث عني في الظلام، وفوجئ بي أنقض عليه من فوقه مجرِّدًا إياه من سلاحه، وسحبت سلك الماكينة من المقبس وأحطتُ به عنقه وضغطت بقوة حتى خارت قواه وسقط فاقد الوعي فالتقطتُ سلاحهما وخرجت متسللًا في الظلام أحاول تبيُّن المكان بصعوبة، كان من الواضح أن الغرفة التي كنت محبوسًا بها موجودة في قبو منزل ضخم، صعدتُ الدرج وفتحت باب القبو قليلًا لأتبين إن كان أحدهم موجود في الجوار، إلا أنه كما توقَّعت لم يكن هناك سوى هذين الرجلين، تعرَّفت على المكان فقد كان هذا منزل التجمع الخامس الذي اشتراه والدي قبل سجني بأعوام قليلة، وصلت لباب المنزل الرئيسي وكرَّرت الاستطلاع فلم أجد إلا خفيرًا يحرس البوابة

المعدنية لسور المنزل والتي يسهل تسلقها، انطلقت أعدو تجاه البوابة وكدت أصلُ إليها لولا ذلك الشيء الصغير الذي اصطدم بكتفي ولم أشعر مع اصطدامه سوى بوخزة بسيطة فالتفَتُّ إلى مصدره لأجد والدي يتقدم نحوي وهو يقول: كنت متأكدًا أنك تدبِّر لشيء ما.

رفعت أحد السلاحين في وجهه فابتسم قائلًا: هل ستطلق النار على والدك؟

لا أعلم إن كنت قادرًا على فعل هذا أم لا، ولم يمهلني ذلك المخدِّر الذي أصابني به وأنا أعدو تجاه البوابة الوقت لأفكر أو أقرر، فلقد شعرت بدوار يكتَنِفني ومادت بي الأرض ولم أتمالك نفسي من السقوط ووجدتُ والدي ينظر إلي ويقول مبتسمًا: أنا أدين لك بالشكر يا (يوسُف) فلولا محاولاتك المتكررة للوصول إلى (شوقي) ما كنت سأعثر على تلك التعويذة التي ستُخرِجك من هذا الأمر إلى الأبد.

حاولت أن أصرخ في وجهه إلا أن الضباب أحاط بي وذهب بي في سبات عميق.

******

أفقت أتصبب عرقًا وأنا ألهث بشدة مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم متحسِّسًا موضع الضربة التي قتلت بها في الكابوس الذي راودني الليلة.

التقطتُّ أنفاسي وأنا أتطلع إلى الغرفة التي عدتُّ إليها مرة أخرى بعد فشل محاولتي للهروب، لو علمتُ مُسبَقًا أن هذه الأسلحة تطلق إبرًا مخدِّرة لحاولت الهروب منذ الليلة الأولى.

كنتُ عاري الصدر وموشوم على جانب صدري الأيمن بوشمٍ حديث دائري دقيق جدًا بداخله نجمة ذات اثني عشر ضلع مُفرَّغة بدورها من الداخل حيث رسم رأس أسد وتحيط بالنجمة دوائر أكبر فأكبر تنتهي بدائرة ذات أهداب ملتوية تشبه رسومات الشمس وتبرز من رؤوس النجمة خطوط طولية تتقاطع مع الدوائر وتقسم كل منها إلى اثني عشر جزءًا مرسوم في كل منها رمزٌ ما.

كان يشبه إلى حد كبير الوشم الموجود على صدر السيد (شوقي) إلا أن وشمه كان مرسوم في مركز الدائرة أفعى ملتوية، وأظن أن هذه الرموز مختلفة.

بالطبع كان هذا هو حل والدي الذي تحدَّث عنه لإبعادي نهائيًا عن هذا الأمر، ولكن كيف؟ كيف يبعدني هذا الوشم عن الأمر نهائيًا كما يدعي؟

رُحت أطرق بقوة باب الغرفة التي أعادوني إليها بعدما فقدت الوعي وأصرخ: ماذا فعلت بي أيها الوغد؟ تعال هنا وواجهني إن كنت رجلًا.

كنت لاأزال أشعر بالدوار وبدأت قدماي تخذلانني فعدتُ إلى الفراش حتى أستحضر قوتي من جديد.

فُتِح الباب ودخل منه والدي بصحبة رجلَي حراسته وهما ينظران إليَّ نظرة ينطلق منها الشرر بشكل لم أستطع معه تمالك نفسي من الضحك وأشرتُ إلى الرجل الذي أخذ مني المرآه وقلت: لقد وعدتُّ هذا الرجل بكيس من الحلوى، أرجو أن تحضره له.

نظر والدي إلى الرجل في غضب فأطرق الرجل برأسه خجلًا، وقال الأول: أعترف أنها خدعة ذكية ولم أتوقع منك أقل من هذا، ففي النهاية أنا من ربيتك.

قلت في حدة وأنا أشير إلى الوشم: ماذا فعلت بي؟

- لقد قلت لك، هذا هو الحل النهائي لمشكلتك، هذه تعويذة تمنع انتقال (ديباك) إليك بشكل نهائي، وبالمناسبة هو كوشم (شوقي) غير قابل للإزالة، بالطبع سيكون عليك أن تجرب كما فعلت أنا معك وأنت فاقد الوعي لأتأكد، ستفاجأ أنه سيعود كما كان قبل حتى أن تكمل إزالته.

قلتُ في غضب: يالك من حقير.

- اهدأ يا (يوسُف) ودعني أشرح لك الأمر، الآن فقط أستطيع أن أوضح لك.

- ستوضح ماذا؟ طمعك في حقي، أم غدرك بالسيد (شوقي)، أم قتل أخيك وأبناء عمومتك، ألم تفهم بعد؟ لم يعد بيني وبينك أي مجال للحديث، وثِق تمامًا بأنني حتى لو لم أحصل عليه فلن أسمح لك أنت أيضًا بهذا، سأُسخِّر حياتي من أجل ذلك.

رفع يده يفك أزرار قميصه وهمَّ بقول شيء ما إلا أن المكان أظلم فجأة فخرج ثلاثتهم من الغرفة وأغلقوها جيدًا.

غابوا لدقائق حاولت جاهدًا خلالها سماع أي شيء إلا أنني لم أتلَقَّ سوى الصمت، أيا ما كان يحدث فصوته لا يصل إلى هنا.

بعد عشر دقائق تقريبًا عادت الأضواء وسمعت صوت باب القبو يُفتح فتراجعت إلى فراشي وراقبت الباب وهو يُفتَح ودخل منه رجلٌ ملثمٌ ممسكًا بسلاحِهِ قائلًا في تهكم: إذن فالطفل المدلل للسيد (شوقي) واقع في مشكلة ولا يجد من يخرجه منها.

أطلق هذا الصوت تنبيهًا في رأسي، أنا أعرف صاحب الصوت جيدًا، ليس هذا فحسب ولكن شيئًا ما يخبرني أنه ليس بصديق، اعتصرت ذهني لتحديد صاحب الصوت وأنا أقول: من أنت؟

رفع اللثام عن وجهه وقال: هل نسيتني بهذه السرعة، لقد كنا رفيقَيْ دَربٍ ذات يوم.

ظهر من خلف اللثام آخر وجه من الممكن أن أتوقعه، إنه ابن عمي (أشرف) منافسي منذ نعومة أظفارنا في كل شيء، فقلت في دهشة: (أشرف)! ما الذي أتي بك إلى هنا؟

دخل من خلفه رجلٌ ملثمٌ آخر وقال وهو يرفع بدوره اللثام عن وجهه: ليس الآن، لابد أن نتحرك قبل أن يستعيدوا وعيهم.

ظهر وجه الرائد (خالد) فازدادت دهشتي وقلت: هل تعرفان بعضكما البعض؟

قال بصرامة: قلت ليس الآن، وأشار إليَّ لأتبعهما فالتقطتُ قميصي بسرعة وارتديته متَّبَعًا إياهما وما إن غادرنا المكان في السيارة التي كانت تنتظرهما حتى صِحتُ بحدة: فليخبرني أحدكما بما يجري.

قال (أشرف) متهكِّمًا: لازلت متسرِّعًا كما كنت، التفاصيل، دائمًا تريد التفاصيل، لا يمكن للسيد (يوسُف) العظيم وريث السيد (شوقي) أن ينتظر قليلًا حتى يحصل على التفاصيل.

صاح (خالد): فلتنهيا خلافاتكما السخيفة هذه، وأخبره يا (أشرف) بما يريد.

- حسنًا إليك التفاصيل يا سيد (يوسُف)، لقد كنت أتبعك منذ خروجك، رأيتك حينما قابلت سيادة الرائد، وحينما اقتحمت المنزل كالمتهور، وحينما اختطفك رجال والدك من شقة الأستاذ (رضوان)، بالمناسبة لماذا ذهبت إليه؟

- ليس هذا من شأنك، لماذا كنت تتبعني؟

- بالطبع ليس من شأني، أنت تريد أن تعرف فقط، لكن أن تخبر أحدًا بأي معلومة فليس هذا شأن أحد، أنت كما أنت لم تغيرك سنون السجن.

صاح (خالد): قلت كفى.

- لقد كنت أعلم أنك ستوقع نفسك في مشكلة مع والدك فقرَّرت مراقبتك من بُعد لكي أقوم بالتصرف إذا قمت بتعريض نفسك للخطر، وهذا ما فعلت، أخذ مني الأمر الكثير من الوقت حتى

وصلت إلى الرائد (خالد) حيث كان غير متواجد بمكان عمله بشكل متواصل ولكنني وصلت في النهاية إلى منزله وأخبرته بما حدث وبمكان اختطافك فقرَّرنا المجيء إليك وتحريرك.

- ولماذا تفعل هذا؟ أظنك تكرهني أكثر لقتلي والدك.

- أنا أعلم جيدًا أنك لم تقتله وأعلم أيضًا ما فعله والدك، وكان لابد لي من الاختفاء حتى لا تطالني يده كما فعل مع بقية العائلة، كما أنني عرفت الكثير والكثير عما يحدث في عائلتنا، وهو أمر في غاية السوء والخطورة.

- ماذا تعني؟

- خدعة يا (يوسُف)، لقد كنا نعيش في أكبر خدعة من الممكن أن تتخيلها، فلنترك هذا لمن يمكنه أن يشرح لك الأمر برُمَّتِه.

نظرت إلى (خالد) وقلت: وأنت، ما الذي غير رأيك ودفعك إلى مساعدتي؟

- لقد أوقفوني عن العمل بسبب إعادتي لفتح التحقيق مجددًا بشأن والدك، ثم إن هناك كلمة تسمى "شكرًا" أعتقد أنها هي المناسِبة لهذا الموقف بدلًا من كل هذه الأسئلة.

تطلع (أشرف) إليَّ في ترقب وانتظر دقيقة كاملة حتى قلتها: شكرًا.

فانفجر في الضحك قائلًا بلهجةٍ ظافرة: (يوسف مختار الكيال) يشكرني، لابد أنها نهاية العالم.

ابتسمت لمزحته واندهشت في نفس الوقت، فلقد كنت قبل سجني شخصًا حادًا ثقيل الظل، أما هو فقد كان يفوقني بمراحل عدة في هاتين الصفتين، أما شخصيته التي تفيض مرحًا في هذا الظرف الذي نمر به كان أمرًا غريبًا بحق، لابد أن السنين قد غيرت كلينا.

- إلى أين نتجه الآن؟

قلتها موجهًا كلامي إلى (خالد) حيث هو من يقود السيارة ولكن (أشرف) هو من قام بالإجابة قائلًا بشكل مسرحي: سنذهب إلى حيث المعرفة، حيث ستعرف يا صديقي كل شيء عن ماضي عائلتنا المظلم.

******

ارتفعت دقات الطبول عاليًا وشرع مجموعة من الرجال يشكِّلون دائرة في الرقص على نغماتها وهم يطلقون صيحات عالية ويلوحون بأيديهم ببعض عظام الحيوانات التي يتدلى منها بعض الحبال الرفيعة القصيرة التي تنتهي بقطع معدنية تصدر أصواتًا عالية عند اصطدامها ببعضها البعض.

كان الرجال داكني البشرة تغطي وجوههم وأجسادهم شبه العارية رسومٌ مختلفة باللونين الأبيض والأحمر ويرتدون أقنعة بدائية بنية اللون مرسوم عليها باللون الأبيض وجوهًا لحيوانات برية وتتدلى من أعناقهم قلادات مصنوعة من أنياب الحيوانات، وفي منتصف الدائرة جلس كاهنٌ لا يختلف عنهم في الهيئة القرفصاء

وبيده قطعة من حجر السبج يثقب بها جلد رجلٍ آخر يرقد على ظهره شبه عارٍ إلا من خِرقةٍ بالية بالكاد تستر عورته.

كان يرسم وشمًا ما على صدر الرجل تاركًا الدماء تسيل من موضع الوشم حتى لامست الرمال من تحتهما، وما إن انتهى حتى وقف على قدميه ورفع يديه عاليًا وهو يصيح بقوة مستدعيًا أحدًا ما يدعى (تويوي) مُعلِمًا إياه أن وعاءَهُ الجديد قد أصبح مستعدًا لاستقباله.

كنت أشاهد هذا المشهد وكأنني أشاهده من شرفة بناء عالٍ وأخذت أنظر إلى الرجال الذين ارتفعت حدة صيحاتهم وتقدمتُ نحو الرجل الراقد أرضًا وأنا أحدق بالوشم الممزوج بالدماء على صدر الرجل، كان نفس الوشم الموجود على صدر السيد (شوقي).

تغيرت زاوية رؤيتي للمشهد وكأنني أنظر إليه بعيني هذا الرجل وبدأت أشعر بانتفاضات عنيفة في جسدي أخذت تهدأ شيئًا فشيئًا حتى زالت تمامًا، نهضت واقفًا وأنا أنظر إليهم في ترقب، وفجأة أشار الكاهن إلى الرجال فاندفعوا نحوي وأسقطوني أرضًا في عنف وجثموا فوقي وكبَّلوني بإحكام.

وشرع الكاهن في طقوس استدعاء جديدة لشخصٍ ما يدعى (أباداماك)، وما إن سمعت هذا الاسم حتى انتابتني نوبة هياج شديدة وأحسست بقوة هائلة تجري في عروقي وأخذت أدفع الرجال من فوقي وألقي بهم واحدًا تلو الآخر.

أخذ الكاهن يركض مبتعدًا وهو لا يزال يصيح مستدعيًا (أباداماك) إلا أنني مددت ذراعي أمامي وأمسكت بشيء ما لا أراه فلقد كانت قبضتي فارغة ولكنني أشعر بشيء ما بين أصابعي، فتسمَّر الكاهن في مكانه وأمسك برقبته يحاول تحريرها من شيء لا يراه وهو يلفظ أنفاسه بصعوبة وكأنه يختنق، فاستدار ينظر إليَّ وقال شيئًا بلغة ما لا أعرفها، ولكن العجيب أنني فهمتها جيدًا فلقد قال: لم يكن هذا اتفاقنا.

أجبتهُ بنفس اللغة التي لا أعرفها: اتفاقك لم يكن معي أيها الأبله.

وضغطت بيدي أكثر فصدر صوت قرقعة مكتومة من رقبة الكاهن وسقط أرضًا، حدَّقت فيه طويلًا حتى تأكدتُ من أنه فارق الحياة وقلت وكأنني أحدِّث نفسي: ما اسمك؟

سمعت صوتًا يجيب في رأسي: (مودور)

قلت: حسنًا يا (مودور) يبدو أن هذه المنطقة قد بدأت تضيق بنا، فلنرحل ولنرَ ما تخبئه لنا هذه الأرض.

أفقت من نومي أتصبب عرقًا كالمعتاد ولكن أشعر بنشوة انتصار وهمية لكوني لم أُقتَل في هذا الكابوس الجديد الذي أراه للمرة الأولى.

كنا قد ذهبنا ليلًا إلى أحد معارف (أشرف) يدعى (صفوت صدقي) يعمل أستاذًا في مجال الحضارة المصرية القديمة بجامعة عين شمس وباحثًا في الأساطير الفرعونية وعلاقتها بالحضارات المجاورة.

رحَّب بنا الرجل الذي تعدى الستين من عمره والذي كان على علم بوصولنا بواسطة مكالمة هاتفية من ابن عمي، وجهَّز لنا غرفة لننام بها أنا و(أشرف) ورفض أن يتحدث في أي شيء قبل أن نتناول عشاءنا ونستريح حتى الصباح.

غادر (خالد) بمجرد علمه بأننا سوف ننتظر إلى الصباح للإجابة على أسئلتنا على وعدٍ بالحضور مبكرًا، أما أنا فقد اغتسلت وارتديت ملابسًا نظيفة من ملابس الرجل ونمت على فراش نظيف لأول مرة منذ ست سنوات، فحتى بعد خروجي من السجن لم أنم إلا على فراش الفندق القذر أو تلك الحشية التي وضعها لي أبي في محبسي لديه.

نظرتُ حولي لأجد فراش (أشرف) فارغًا، فخرجت من الغرفة باحثًا عنه بهدوء، فارتفع صوته ينادي عليَّ حينما سمع صوت باب الحجرة يُفتَح ليخبرني أنه في المطبخ فذهبت إليه فوجدته يُعد الإفطار فسألته مندهشًا: هل تقيم هنا؟

ابتسم قائلًا: كلا بالطبع، ولكنني أحضر كثيرًا للأستاذ (صفوت) كلما استطاع أحدنا العثور على معلومة جديدة حول (ديباك)، فقد تعرفتُ عليه بعد حبسك بقليل عن طريق موقع على الإنترنت يهتم بتاريخ مصر القديم.

- أنت طبيب، لماذا تهتم بتاريخ مصر القديم؟

- لأن تاريخ عائلتنا مرتبطٌ به إلى حد كبير، اصبر قليلًا وستعرف كل شيء.

- كنت أظن أن تاريخ عائلتنا مرتبط بتاريخ أفريقي أكثر منه فرعوني.

ارتسمت علامات الدهشة على وجهه وقال: وما الذي دفعك إلى الاعتقاد بهذا؟

- بعض الأحلام التي أراها، أغلب من أراهم في أحلامي رجال أفارقة داكني البشرة يقومون ببعض الطقوس البدائية.

ظهر القلق على وجهه وقال: منذ متى ترى هذه الأحلام؟

- كان حلماً واحدًا على مدار سبع سنوات تقريبًا، أو كابوسًا بالأحرى، ولكن هناك سبعة أخرى أضيفت إليه بعد خروجي.

- بعد خروجك مباشرة أم بعد اقتحامك المنزل ولقائك بالسيد (شوقي)؟

فكَّرتُ قليلًا واكتشفتُ أنه محقٌ في استنتاجه فقلت: هذا صحيح، لقد بدأت بالفعل بعد اقتحامي للمنزل، كيف عرفت؟

- دعنا نتناول الإفطار الآن، ولنترك التوضيح للأستاذ (صفوت)، فلقد أعددت لك إفطار شهيًا لم تتناوله منذ سنين.

ابتسمت وساعدته في إعداد الطعام، لقد تغيَّر هذا الوغد كثيرًا، لا أعلم إن كانت هذه شخصيته التي لم أتعرف عليها لِتنافُسِنا الدائم أم أنه أصبح هكذا بعد الظروف العصيبة التي مرت به، كل ما أعرفه

أنه استطاع في أقل من يوم واحد أن يشعرني أنه عائلتي الوحيدة بعد أن كنت أُكِّن له مشاعرًا لا تختلف كثيرًا عما كنت أكِّنها لوالده، فسألته في وِد: إذا كنت تعلم أنني لم أقتل والدك فلماذا لم تزرني مطلقًا في السجن؟

- لم أكن أستطيع فعل هذا فسيدرك والدك هذا على الفور وسيعلم بمكاني، ولكنني كنت أحاول تعويضك بطريقة أخرى.

- وكيف هذا؟

- من في رأيك الذي كان يحضر لك الملابس الزرقاء والأطعمة ويرسل إليك قسائم بآلاف الجنيهات كل عام؟

قلت بدهشة: أنت من كنت تفعل هذا؟

- بالتأكيد ليس والدك.

- كنت أعلم أنه أحد أفراد العائلة، ولكن لم أتخيل أنه أنت.

قال بحذر: هناك شيءٌ يجب أن تعرفه بخصوص بقية أفراد العائلة.

- غير أن والدي قتلهم جميعًا؟

- حسنًا، لا داعي لإخبارك إذن، فمن الواضح أنك عرفت، ولكن هناك خبر جيد في كل هذه الفوضى.

- وما هو؟

قال بمرح: أنني الآن عائلتك الوحيدة أيها الأبله.

قالها وضحك بقوة، وأعتقد أنه لم يتخيل أنني هكذا كنت أفكر منذ قليل، فقلت ضاحكًا: وما الجيد في هذا؟ هذه كارثة كبرى.

انضم إلينا الأستاذ (صفوت) وأضاف لمساته الأخيرة على الطعام وجلسنا نتناول الإفطار في جوٍّ ودِّي ذكرني بأصدقاء السجن، فلم تكن فترة السجن كلها صراعات، بل كانت أيضًا لتكوين صداقات قوية أصدق كثيرًا من مجموعة السفهاء التي كنت أصادقها والذين تخلُّوا عني في محنتي وشهدوا ضدي زورًا أثناء محاكمتي.

حضر الرائد (خالد) وأصرَّ الأستاذ (صفوت) على أن يتناول معنا الإفطار واضطُّر للصياح فيه أمام رفضه قائلًا: قلت لك كُل.

توقفت أنا و(أشرف) عن تناول الطعام وأخذنا نتابع المشهد في ترقب فبالطبع لم يكن سيادة الرائد معتادًا على أن يخاطبه أحد هكذا وفوجئ كلانا به يمتثل للرجل ويجلس صاغرًا لتناول الطعام.

بعد الإفطار توجَّهنا إلى غرفة المكتب وجلس (خالد) الذي كان يعاني من نوبة صداع شديدة يتطلع إلى الرجل باهتمام وهو يخرج صورًا رقمية لمخطوطة قديمة وقال: أعلم يا (يوسُف) أنك بحاجة للإجابة على بعض الأسئلة ولكن قبل أن نبدأ لابد أن تتقبل كل ما سيقال وتحاول أن تستوعبه مهما كان غريبًا.

أومأت برأسي موافقًا فأشار إلى إحدى صورِهِ وقال: هذه المخطوطة يعود تاريخها إلى عام ٣٤٠ قبل الميلاد تقريبًا أي أثناء حكم الأسرة الحادية والثلاثون وهي الأسرة الأخيرة تقريبًا قبل حكم

البطالمة، قمنا بصعوبة بتجميعها أنا و(أشرف) في محاولة لفهم ما يحدث في عائلتكم، وهي لكاهن مصري يُدعي (قاي- آل) يحكي فيها عن رجل كوشي جاءه يتوسل إليه أن يجد له طريقة ليموت بها، فالرجل حرفيًا لا يموت ولقد تأكد (قاي-آل) من هذا بنفسه عن طريق تسميمه تارة وطعنِهِ تارةً أخرى ومحاولات أخرى كثيرة عدَّدها الرجل في مخطوطته وأعلن في النهاية فشله وأن هذا الرجل لا يمكن قتله.

وتناول صـــورة أخـــرى وقال: وهذه ورقة أخـــرى من نفس المخطوطة تحكي عن قصة الرجل الكوشي الذي لا يموت، ويدَّعي فيها أن كاهن قبيلته اتفق معه على استحضار أحد آلهتهم المزعومة في جسده يدعي (تويوي)، كان هذا الإله المزعوم ظالم يعثو في الأرض فسادًا ويرغمهم على تقديم قرابين بشرية كل فترة، وقد استعانوا بأحد كهنة إله آخر يدعى (أباداماك) وهو أحد آلهة الكوشيين المعروفين وله معبد لايزال موجودًا حتى الآن بشمال السودان، فأخبرهم هذا الكاهن أنهم يستطيعوا سجنه بأحد أجساد رجالهم إذا قاموا بوشم هذا الرجل بوشم معين لتعويذة قوية.

ثم أخرج صورة أخرى مرسوم بها وشم مطابق لوشم السيد (شوقي) فتابعت أنا: وتم وشم الرجل واستحضروا هذا الإله الظالم ليحل بجسد الرجل وتم هذا بالفعل ومن ثمَّ حاولوا احتجازه لحين

استدعاء (أباداماك) إلا أن الرجل لم يستطيع السيطرة على (تويوي) فأرغمه على قتل الكاهن والهرب بعدها.

نظر إليَّ الجميع بدهشة وقال الأستاذ (صفوت): هذا صحيح كيف عرفت؟

تابعت: وبالطبع هذا الرجل الكوشي يدعي (مودور).

ازدادت دهشة الجميع مع تأكيد الأستاذ (صفوت) لصحة المعلومة ونظر إليَّ (أشرف) وقال: هل هذه هي..

قاطعته قائلًا: نعم هذه هي الكوابيس التي تراودني، ولكن هذا بالتحديد لم أره سوى الليلة الماضية.

- هل رأيت المكتوب في هذه البردية في حلمك؟

- نعم بالتفصيل كما أخبرتك حتى هروب ذلك الرجل.

سأل (خالد): وفي الحلم؛ ماذا كان دورك؟

ازدرتُّ لعابي وقلت بقلق: أعتقد أنني كنت أؤدي دور الإله الظالم.

سأل الأستاذ (صفوت): وماذا رأيت أيضًا؟

- لا شيء، لقد استيقظتُ فورَ قتلِي للكاهن وهروبي.

صمت الجميع لوهلة فتابع الرجل: حسنًا سنبحث في سبب هذا فيما بعد والآن دعونا نتابع.

وأشار إلى صورة أخرى وقال: هذه صفحة أخرى تتحدث عن أن ذلك الكاهن يقسم أن ما يسكن ذلك الرجل هو الشيطان بعينه وأنه

تحدث معه أكثر من مرة وأخبره أنه حبيس ذلك الجسد وهدَّده أنه سيقتله هو وعائلته إن لم يخرجه منه.

تناول صورة أخرى وتابع: وهذه تحكي عن قيامه بسحر سكينٍ ما وشراب لابد أن يتناوله قبل أن يقوم بما هو عازم على فعله.

سألته: وما علاقة هذا كله بعائلتنا؟

- أعتقد يا (يوسُف) أن هذا الكاهن (قاي-آل) هو أصل عائلتكم التي عرفت فيما بعد بعائلة الكيال بعد اندماج المقطعين واختصارهما، وأن هذا الشيطان أو الكيان أيًا كان قد انتقل إلى الكاهن وهو ينتقل إلى أفراد عائلتكم جيلًا بعد جيل، وآخرهم هو قريبكم (شوقي) وكان من المفترض أن يصل إليك بعده.

- ولكن هذا مجرد استنتاج، أعني أنه من الواضح أن المخطوطات صحيحة، ولكن ربْط اسم الكاهن باسم عائلتي مجرد تخمين.

- يمكن لـ(أشرف) أن يجيب على هذه النقطة.

التفتُّ إلى (أشرف) وسألته: وكيف هذا؟

أجاب: هل تذكر تلك المنافسة التي وضعنا فيها أبوانا منذ صغرنا؟

- بالطبع أذكر، لقد كانت حياتانا عبارة عن مسارٍ طويلٍ مرسوم بدقة من قِبل والدَينا وخرجت أنت من المنافسة مع إصرار والدك على إلحاقك بكلية الطب، فمن الواضح أن المسار المرسوم ليس به إلا مجالًا واحدًا وهو كلية التجارة قسم إدارة الأعمال.

- هل فكرتَّ يومًا لماذا أصرَّ والدي على إلحاقي بكلية الطب مع علمه بأن هذا سوف يخرجني من المنافسة، علمًا بأنه كان يبني آمالًا كبيرة على فوزي بلقب المرشح، وعلى الرغم من تقدمي عليك دائمًا.

قلت بلهجة دفاعية: ليس دائمًا.

ابتسم وقال: في أغلب الأحيان، فلتعترف يا (يوسُف) أنني كنت الأقرب للفوز.

- حسنًا، ها قد طُرِد كلانا واستولى عليها أبي.

- أنا لم أُطرَد يا (يوسُف) وإنما تعمَّدَ أبي إخراجي من المنافسةِ بشكلٍ لا يثير الريبة، ولقد حكى لي والدي رحمه الله عن السبب بعدما قاطعتُه لفترةٍ طويلة.

- وما هو؟

- السبب هو ما جاء بالمخطوطات، لم يكن أبي يعلم عنها شيئًا بالطبع ولكن يبدو أن السيد (شوقي) كان يفضلك أنت على كل حال، فأخبر والدي بما يحدث لإخافته وليبعدني عن المنافسة، لقد أخبره أن عائلتنا تسيطر على شيطان قديم، كان يتنقَّل ما بين الأجساد بحرية ويسيطر عليها تمامًا ويجعلها مجرد وعاء له إلا أن أحد أسلافنا اكتشف طريقة لاحتجازه بجسده بل والسيطرة عليه وهذا الشيطان هو من يجعل جسد حامله غير قابل للموت، يعالجه بطريقة ما من الداخل، حتى يذبل الجسد ولا يعود قادرًا على التحمل فينقله صاحب الجسد إلى من يخلُفُه والذي لابد أن يكون بين الثامنة عشر

والسابعة والعشرون أي في عنفوان شبابه لكي يتحمل الإكسير الذي اخترعه هذا الكاهن والذي يطوَّر من قدرات المخ بشكل كبير فيجعله قادرٌ على السيطرة على الشيطان وليس العكس، فلو شربه شخصٌ ما في غير ذلك العمر فقد يسبب له ضررًا دائمًا بعقله، ليس هناك ما يُدعى بالخلود يا (يوسُف)، هو فقط شيطان يتغذى على جسدك وتتغذى أنت على قدراته حتى يذبل جسدك فتنقله إلى غيرك وتلقى مصيرك المحتوم، وعندما علم أبي بهذا أصرَّ على إخراجي من المنافسة لأنه مهما كانت المميزات فهو بالتأكيد لا يريد لي أن يسكن عقلي شيطانٌ ما، ففي النهاية سأكون مجرد (ديباك) أي وعاء وليس الخالد كما أخبرونا.

- ماذا تعني؟

- كلمة (ديباك) تعني باللغة الأفريقانية (الوعاء) إلا أنَّ هذه اللغة تعتبر حديثة لا يتعدى عمرها القرنين من الزمان، والأستاذ (صفوت) يعتقد أنه اسم لذلك الشيطان وكان يُطلق بطبيعة الحال على من يتلبَّسه والذي يصير مجرد وعاء له، فاستُعمِلت الكلمة بهذا المعنى في اللغة المروية -لغة أهل كوش- وتنقَّلَت بين اللغات بنفس معناها حتى وصلت إلى بعض اللغات الحديثة، وهذا بالطبع مجرد استنتاج فاللغة المروية معروفة كحروف ولكن لم يتم اكتشاف كيفية التحدث بها إلى الآن.

سكتُّ مصدومًا من هذه المعلومات الجديدة فقال (خالد): إذن دعونا نرتِّب هذه المعلومات، هذا الشيطان أو هذا الكيان كما تقول الأسطورة كان يتَنَقَّل بين الأجساد بحرية، إلا أن البشر ثاروا ضد ظلمِهِ وتحكُّمه فحبسوه في جسد أحدهم، ومن الواضح أنه كان يوجد تبادل بينهم في السيطرة فكان (مودور) صاحب الجسد يسيطر لفترة وهذا ما يدل عليه حديثه مع الكاهن وطلبه منه قتله بل واستجابته لمحاولات الكاهن لقتله، وتارة أخرى كان يسيطر هذا الشيطان بدليل أنه قتل الكاهن الذي حبَسَه في جسد (مودور)، وتحدث مع الكاهن المصري الآخر طالبًا منه إخراجه من هذا الجسد، ومن الواضح أن الوشم الذي وُشِم به (مودور) هو التعويذة التي نجحوا من خلالها في حبس ذلك الشيطان بداخله، وقد يكون السبب في عدم سيطرة الأخير عليه هو أن عمره كان غير مناسب ليعمل الإكسير عليه بقوَّة.

قلت: نعم فهذا الوشم موجود بكامل تفاصيله على جسد السيد (شوقي).

تابع (خالد): حسنًا، هذا يؤكد الأمر، ولقد طمع الكاهن المصري في هذه القوة فابتكر هذا الإكسير الذي يَمكِّنه من السيطرة على هذا الشيطان، ولكن كيف نقله إليه؟ هل ينتظر حتى يذبل الجسد كما يقول (أشرف)، هذا يتيح فرصة للشيطان للتحرر فلو ذبل الجسد ومات صاحبه سيتحرر ولن يتمكن أحد من السيطرة عليه ثانية.

- يقتله.

أجبتُهُ بهذه الكلمة فنظر إليَّ الجميع في تساؤل فتابعت: الوريث الجديد يقتل (ديباك) بسكين معين فينتقل إليه، لهذا طلب مني السيد (شوقي) قتله.

قال الأستاذ (صفوت): لابد أن هذا هو السكين المسحور الذي ذكره (قاي-آل).

- نعم لقد أخبرني أنه لا يمكن قتله سوى بذلك السكين.

- هل أخبرك بمكان وجوده؟

- نعم في الغرفة المجاورة له، إلا أنها غرفة محجوبة، لا يمكن لأحد أن يدخلها سواه هو والمرشَّح بعد تحضيره لعملية الانتقال، ولكنَّه محبوس في غرفته بواسطة تعويذة ما ولا يمكنه الخروج منها.

قال (خالد): أظن أن هناك مشكلة كبرى، فلو كان ما تقولونه صحيحًا، فهذا يعني أن صاحبكم هذا المدعو (شوقي) في طريقه إلى الموت لذلك يسعى جاهدًا لنقله إلى (يوسُف)، ولو لم يتم هذا فسوف يتحرر هذا الشيطان، هل تدركون ما معني هذا؟

تطلعنا إليه جميعًا في صمت ولم نستوعب ما يرمي إليه فتابع: هذا يعني أنه سيعود هو المتحكم في الأجساد مرة أخرى، لقد كان فيما مضى يسيطر على رؤساء القبائل وكهنتهم، تخيلوا معي إن كان قادرًا على السيطرة على رئيس دولة عظمى مثلًا، هل تتخيلون مقدار الدمار الذي يمكن أن يُحدِثه؟

******

٥. الهَـــارِب

مَضَى وقت طويل منذ أدائي التمرينات في صالة حقيقية للألعاب الرياضية لآخر مرة، فقد ذهبت مع (أشرف) الذي كنت أقيم لديه حتى عودة زوجته وابنه من عند والدتها، كان لايزال يحافظ على أدائه لتمريناته اليومية وقد احتفظ بلياقته وقوته، أما أنا فعلى الرغم من أنني كنت أحاول ممارسة بعض التمرينات أثناء محبسي إلا أنني كنت مُقيدًا بالمساحة الشخصية المخصصة لي ألا وهي (شبرين وقبضة)، ففقدت كثيرًا من لياقتي وقوتي.

أخذتُ أركضُ فوق آلةِ المشي وأنا أهرب من كل همومي، أركض لأهرب من والدي ومن السيد (شوقي)، أركض لأهرب من شيطان كدتُ أدخله رأسي بمحض إرادتي، أركض لأهرب من الكوابيس التي تراودني يوميًا أهرب فيها من شيء ما يقتلني في كل مرة، فتارة أهرب من محارب كَمِيٍّ وتارة من هُمَامٍ وحشِيٍّ، حتى انتبهت فجأة إلى أنه ليس أنا من يهرب، فعلى الرغم من أن هذه أحلامي إلا أنها واقعٌ لذلك الشيطان، فترجَّلت من الآلة بعدما أطفأتها وقلت لـ(أشرف): إنه يهرب.

نظر إلى بعدم فهم فكررت بصوت أعلى: إنه يهرب.

اتجهت أنظار رواد الصالة إلينا فاصطحبني (أشرف) إلى ركن منعزل وقال: من هو الذي يهرب؟

- (ديباك)، إنه يهرب من شيء ما أقوى منه، وفي كل مرة يعثر فيها عليه يقتله، هذه الكوابيس هي لقطات من حياته التي عاشها على مر الأزمان، لقد وجده سبع مرات وفي كل مرة قام بقتله فيها، إلا أنه كان يقتل الجسد الذي يحمله وينجو هو بشكلٍ ما.

- دعنا نذهب إلى الأستاذ (صفوت) ولتحكِ له هذا الأحلام ولننظر ماذا سيقول.

توجَّهنا مباشرة إليه بعد أن أعلمناه بحضورنا هاتفيًا، واتصل (أشرف) بـ(خالد) ليُحضره هو أيضًا، وجلسنا في غرفة المكتب كالمعتاد نشرب شايًا بالنعناع ورحت أحكي لهم أحلامي وكيف تنتهي في كل مرة بموتي بهذا الشكل المؤلم، وثلاثتهم يستمعون إليَّ في صمتٍ حتى انتهيتُ، فقال (خالد): تقول إن طريقة الموت تختلف ولكن إحساسك بنوع الألم لا يختلف في كل مرة، كيف هذا؟ كيف يشبه أثر طعنة رمح لضربة سيف أو نهش أنياب ليثٍ لجسدك، بل وكيف يسلط عليك أسدًا من الأساس لكي يقتلك، لا أعتقد أن هذه الأحلام لها علاقة به.

كان الرجل حالته مزرية، يتحدث وهو زائغ النظرات ويعاني من ألمٍ في رأسه نتيجة ارتفاع ضغط دمه بسبب ما فعله به والدي، إلا أنني لم أُراعِ حالته وقلت في حدة: وكيف تفسر أيها العبقري رؤيتي لما قاله الكاهن ومعرفتي باسم الرجل الذي حُبس في جسده للمرة الأولى؟

- لا أعلم، ولكن هذا مختلف.

سأل الأستاذ (صفوت): تقول إن الألم كانت تختلف شدَّتُهُ من مرة إلى أخرى؟

- نعم، لو قمنا بترتيبهم سيكون أخفُّها ألما هو حلم الرجل المدرَّع وأعلاها طعنتي الرمح اللتين أصابني بهما الرجل الأفريقي.

- لن نستطيع بالطبع ترتيب تلك الأحلام ولكن إذا افترضنا بأن تسلسلًا زمنيًا يبدأ بالرجل المدرع وينتهي بالرجل الأفريقي فهذا يعني أن الألم يزداد في كل مرة عن التي قبلها ومعنى هذا إما أنه يضعف أو أن مُطارِده يزداد قوة وفي كلتا الحالتين النتيجة ستكون واحدة وهي أنه سيتمكن من القضاء عليه في النهاية، لابد لنا أن نعرف من أو ما الذي يطارده.

قال (أشرف) في حماس: نعم وقد يساعدنا على التخلص منه بشكلٍ نهائي هذه المرة.

قال (خالد): فلنأمل أنه قبل أن يتخلص منه أن يساعدنا في إثبات التهم على والدك فسيبدأ التحقيق معي خلال ثلاثة أيام ولم أستطع حتى الآن إنجاز أي خطوة في هذا الأمر.

قال الأستاذ (صفوت): فلنحدِّد ماهيته أولًا ثم نعثر عليه وإذا عرفنا لماذا يطارده فسنعرف عندها هل يمكنه المساعدة أم لا؟

- وكيف سنفعل هذا؟

- بالبحث يا ولدي، فكما عرفنا كل شيء عن هذا الشيطان بالبحث وسط الأوراق المنسيَّة، سنعرف أيضًا كل شيء عمَّن يطارده بنفس الطريقة.

- أتمنى لكم التوفيق، فلن أستطيع مساعدتكم في تلك الفترة وحتى انتهاء جلسات التحقيق.

قالها وهَمَّ بالمغادرة إلا أن الأستاذ (صفوت) استوقفه قائلًا: أعانك الله يا ولدي، ولكنك لن تتحرك خطوة واحدة من هنا حتى نتناول سويًا طعام الغداء، لقد حضَّرتُ الطعام لأربعة أفراد.

قلت مازحًا: لابد أن زوجته تنتظره يا سيدي، هذه هي المرة الثانية التي تحتجزه فيها لتناول الطعام.

أجاب (خالد): ليس هناك من ينتظرني فأنا لم أعد متزوجًا بعد، ولكن ائذن لي يا سيدي بالانصراف، فأنا مرهق جدًا وأشعر بالتعب.

قال الرجل بصرامة: لن يتحرك أحدكم من مكانه قبل تناول الطعام، هذه هي قوانين المنزل.

ثم أتبع قائلًا بابتسامة ودودة: وأنت مطالب بتنفيذ القانون يا سيادة الرائد، أليس كذلك.

عاد (خالد) للجلوس مرة أخرى وقال: نعم يا سيدي فوظيفتي هي تطبيق القانون مهما تتطلب الأمر.

******

جلست أرضًا أضم ركبتيَّ إلى صدري وأحيطهما بذراعي وأنا أتطلع إلى ذلك الشاب الذي يرقد أمامي أرضًا فاقد الحركة والدماء تسيل من جرح عميق في صدره، ورحت أنظر إلى السلاح الذي أمسكه بيدي، كان ذو فوهة أطول قليلًا من المعتاد وذات قطر سميك ومصنوع من معدن خفيف.

كنت أجلس في غرفة ذات جدران زجاجية خضراء تخفي ما وراءها وتضيء بشكل كامل إضاءة لا تصدر من مكان بعينه، تعطيك شعورًا أنك في غرفة من الزمرد الأخضر النقي، تنسدل الستائر الحريرية الناعمة من أعلى أحد جدرانها ويبدو أنها تُخفي شرفة لا يظهر على ماذا تُطِل، وفي وسط الغرفة فراش كبير وثير ذو نمارق حريرية لامعة.

دخل الغرفة رجل يرتدي رداءً طويلًا رمادي اللون وتعلو رأسه عمامة سوداء ونظر إلى الشاب الملقى أرضًا وإلى السلاح في يدي وقال بفزع: هل قتلته؟

قلت في خوف: لم أكن أنوي فعل هذا، لقد أتيت إليه كما نصحتني لأحذره من تجسُّسِه علي، ولكنني فوجئت به يعرف كل شيء، يعرف طبيعة السلاح الذي نصنعه ويعرف فيمَ سنستخدمه، وهدَّدني بأنه سوف يخبر والدي.

وانفجَرْتُ في البكاء قائلًا: لم يكن أمامي سوى هذا، حاولت إقناعه أنني أريد إيقاف الحرب، فاتهمني بأنني أريد إشعالها وأنه لو تسرَّب

خبر هذا السلاح الجديد إلى الشَّمال فسيهدم هذا كل محاولات أبي في مساعي الصلح التي يسعى جاهدًا إليها، حاولت إقناعه بأن الحرب المستعرة منذ آلاف الأعوام لا يمكن إنهاؤها بالصلح بل لابد لطرف ما أن ينتصر، كل ما أحاول فعله هو أن نكون نحن هذا الطرف، إلا أنه لم يقتنع وهددني أنه سيخبر أبانا الملك.

قال الرجل في قلق: ليس هذا وقت البكاء، من الجيد أنك تخلصت منه فلو علم والدك بما نفعل فلن يتورع عن تسليمك بيده لملك الشَّمال إظهارًا لحسن نواياه فهو يسعي لهذا الصلح بكل قوته، يجب أن تختفي من هنا وندبر حجة غياب تبعد عنك الشبهات حينما يكتشفوه، من السهل خداع الملك، المشكلة تكمن في خداع شقيقك، لن يهدأ له بال حينما يعلم بمقتل شقيقه الأصغر، أنت تعلم مدى ارتباطه به.

صرخت فيه: أنا أيضًا كنت أحبه، فهو أخي مثلما هو أخيه لقد كنت مضطرًا لما فعلت.

أمسك الرجل بيدي وقال: هيا بنا الآن ليس هناك وقت لنضيعه.

استيقظت من نومي وأنا أنظر إلى يدي التي كانت تمسك بالسلاح وقد انتابتني الحيرة، إذا كانت الأحلام السابقة صورًا من حياة هذا الشيطان، فلمن هذا الحلم؟ لا يمكن أن يكون ما رأيته حقيقة، السلاح حديث، و(ديباك) تسيطر عليه عائلتي منذ قرون، الحلم أشبه

بمشهد من رواية أو فيلم خيالي، لابد أنني بدأت أخلط الواقع بالخيال.

دار في ذهني سؤال يحيرني منذ أن علمت بحقيقة عائلتي، ماذا لو تحرَّر هذا الشيطان؟ هل سيعود للسيطرة على عقول البشر ويفسد حياتهم مرة أخرى؟ هل سينتقم مني ومن عائلتي بعد تحرُّرِه بسبب ما فعلته عائلتي به؟ كل هذا قادني إلى السؤال الأهم: هل يجب عليَّ تقبل مصيري واحتواء هذا الشيطان في جسدي حتى أمنع شروره عن العالم وأمنع انتقامه مني وممَّن تبقى من عائلتي؟

زادت بي الحيرة ولم أعرف لمن أتحدث، خاصةً أنه يجب عليَّ مغادرة منزل (أشرف) لأن زوجته وطفله الصغير سيعودان اليوم، بالطبع هو لم يطلب ذلك بل إنه أصر على عدم رحيلي ولكنني أفضل تلك الحجرة في ذلك الفندق المتواضع على أن أتسبَّب في حرج له بعد كل تلك المواقف التي ساعدني فيها ولم يكن يخطر في ذهني لوهلةٍ أنه يمكن أن يساعدني بهذه الطريقة وبالأخص النقود والملابس التي كان يأتيني بها في محبسي.

كان عليَّ أن أتحدث إلى أحد حتى لا ينفجر عقلي، فخطر ببالي الأستاذ (صفوت) إلا أنه لا جديد لديَّ يمكن أن يفيده في بحثه، ففكرت في الأستاذ (رضوان)، هو لا يمتلك بالتأكيد أي حلول يمكن أن يساعدني بها ولكنه يمتلك من رجاحة العقل وعذوبة القول ما يمكن

أن يُهدئ عقلي ويسكن قلبي فعزمت على المرور به قبل ذهابي إلى الفندق.

وقبل عودة (أشرف) من عمله كنت قد حزمت حقيبتي الصغيرة وانطلقت في طريقي مُرسِلًا رسالة نصية إلى ابن عمي أشكره فيها على حسن ضيافته وواعدًا إياه بأن أزوره قريبًا لأتعرَّف على أسرتِهِ الصغيرة بشكلٍ لائق.

قصدتُّ مسجد المحمودية بميدان محمد علي ووصلت مبكرًا قبل صلاة المغرب، فأديت الصلاة وانتظرت صلاة العشاء التي لا يتخلف عنها الرجل في هذا المسجد، وجلست كعادتي منذ صغري أحدق في تلك المقرنصات التي تعلو النوافذ أصعد ببصري مع منحنياتها لأنزلق به من الجهة الأخرى وأشرُد في تفاصيل الزخارف العتيقة التي تملأها أتتبع خطوطها الرئيسية من بدايتها وأسير معها كمن يسير على طريقٍ مرسومٍ على متاهة متشابكة الطرق أشعر بنصري عليها حين أصل إلى نهايتها.

أُذِّن لصلاة العشاء وصلَّيت مع جموع المصلين وانتظرت الأستاذ (رضوان) هذه المرة خارج المسجد وما إن رآني حتى بدت على وجهه علامات القلق والتي حاول إخفاؤها ولكنه لم ينجح وقال في اهتمام واضح: (يوسُف)، الحمد لله أنك بخير يا ولدي.

قلت: أرجو أن تعذرني على هذه الزيارة المفاجئة، ولكنني بحاجة إلى التحدث مع شخص يمكنه أن يسدي إليَّ نصيحة تساعدني.

- تعال يا ولدِي، هيا إلى المنزل ولتحكِ لي ما شئت.

- عذرًا يا أستاذي، ولكن دعنا نسير قليلًا في الهواء الطلق، لا أريد أن أعرِّض بيتك للخطر كما حدث في المرة السابقة.

لم يعترض كثيرًا ورحتُ أروي له ما حدث منذ اختطافي على يد والدي وعلامات الانزعاج على وجهه تختلِط أحيانًا بعدم التصديق.

أنهيتُ روايتي وانتظرته قليلًا إلى أن قال: إذن أنت ترى لقطات من حياة هذا الشيطان في أحلامك؟

- أحيانًا تكون لقطات واضحة وأحيانا تكون مختلطة بمشاهد من مخيلتي.

- ولماذا لا تكون كلها مشاهد من مخيلتك؟

- لقد أخبرتك بما وجدناه في المخطوطة، لقد تطابق تمامًا مع إحداها.

صمت قليلًا وقال: الحقيقة يا ولدي أنني لازلت أجد صعوبة في تصديق كل هذه الروايات، إلا أن الرواية بذلك الشكل أقرب إلى التصديق من ترَّهات الخلود التي كنت تتوهَّمها، ليس معنى هذا أن ما تقوله منطقي ولكنني أجده أقل غرابة من خرافة الخلود، هناك بالطبع ثغرات كثيرة مثل لماذا ترى في أحلامك مشاهد من حياته؟ ولماذا أنت من ترى هذه المشاهد وليس والدك مثلًا أو ابن عمك؟ وكيف تمكن هذا الشيطان من الحياة لكل هذه الفترة؟ فليس من

المنطقي حتى لبني الجن أن يحيوا لآلاف الأعوام، نعم هم أعمارهم طويلة ولكن ليس لكل هذه الفترة بالتأكيد!

ابتسمتُ قائلًا: ها أنت ذا تضيف إلى ذهني أسئلة توقِدُه وإلى حيرتي وقودًا يؤَجِّجُها.

- أنا لن أكذب عليك يا ولدي، لا أعرف ما الذي يمكن أن أنصحك به، ولكن اعلم أنك الآن في مفترق طرق، طريق يمكنك فيه أن تحيا حياتك بعيدًا عن كل هذا وتترك كل هذه الأمور وراء ظهرك فأنت الآن رجلٌ حرٌ لا تتقيَّد بقيود عائلة ولا بأصفادِ سجنٍ، لذا يمكنك أن تتابع حياتك كما تشاء.

- والطريق الآخر؟

- الطريق الآخر هو طريق الخلود، أن تكمل بحثك عن هذا الشيء وطريقة مواجهته وأن تجد طريقة للتخلص منه قبل أن ينطلق ويعثو في الأرض فسادًا ولا يمكن عندها لأحد إيقافه، وحينها يبقى عملك هذا صدقة جارية بكل نَفْسٍ أنقذتها وكل عقل حافظت عليه يسبحون ربَهم ويستغفرونه ويعمِّرون الأرضَ هم وذرياتهم من بعدهم، فيبقى لك ما يرفع درجاتك حتى قيام الساعة، **هذا هو طريق الخلودِ الحقِّ يا ولدي**.

- ولكنني حتى لا أعرف من أيد أبدأ.

- أنا أعرف، ولكن ما سأقوله لن يروق لك.

نظرت إليه بتساؤل وعندما أخبرني بنصيحته أدرَكْتُ أنه كان على حق، فما قاله لم يرق لي على الإطلاق.

******

استيقظ (أشرف) من نومه في السادسة صباحًا على رنين هاتفه المحمول، فأجابه تلقائيًا وهو لا يزال في حالة من النعاس قائلًا: السلام عليكم.

جاءه صوت (خالد) عبر الهاتف: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أرجو المعذرة يا (أشرف) ولكن هل تعرف إن كان (يوسُف) قد ذهب إلى نفس الفندق الذي كان يقطن به أم أنه أقام في فندقٍ آخر.

- لا لم يذهب إلى فندق آخر، لقد قال لي أنه سيذهب إلى نفس الفندق، وهاتفه مغلق منذ الأمس ولم أستطع الاطمئنان عليه.

- هناك خطبٌ ما، فأنا أيضًا أحاول الوصول إليه منذ أمس، ولكن هاتفه مغلق وحينا قدِمْتُ إلى الفندق أخبروني أنه اتصل هاتفيًا ليحجز غرفة، ولكنه لم يأت لاستلامها، وسألت في الفنادق المجاورة ولم أستطع العثور عليه، أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

تطاير النعاس من عينَي (أشرف) وجلس على طرف الفراش وقال في قلق: إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟

- لهذا أتصل بك، هل لديك أي فكرة عن أي مكان من الممكن أن يكون قد قصده؟

- (يوسُف) ليس له أصدقاء ولا أقرباء، أصدقاؤه فقدهم منذ محبسه وأقرباؤه تم قتلهم.

- وصديق والده الذي ذهب إليه وتم اختطافه من بيته، هل يمكن أن يكون قد ذهب إليه؟

- لا أعرف، ولكن أعتقد أننا لابد أن نسأله، فهناك احتمال لذلك.

- أين يسكن؟

- قابلني بعد ساعة عند مسجد المحمودية بميدان محمد على.

- حسنًا، ولكن أسرع.

بعد ساعة كانا قد تقابلا عند المسجد وقاد (أشرف) رفيقه إلى منزل الأستاذ (رضوان) والذي فتح الباب متطلعًا إليهم في دهشة، فمن ذا الذي يدق بابه في مثل هذه الساعة المبكرة، فقال بلهجة صارمة: من أنتما؟

قال (أشرف): السلام عليكم يا أستاذ (رضوان)، أنا (أشرف) ابن أخي صديقك (مختار الكيال)، لا أدري إن كنت تتذكرني أم لا، فلقد جئت لزيارتك كثيرًا مع عمي قبل عدة سنوات.

- (أشرف)، مرحبًا بك يا (أشرف)، اعذرني يا ولدي فلقد مرَّت سنون طوال، وعمك (رضوان) لم تعد ذاكرته تسعفه كالسابق.

ونظر إلى (خالد) وقال: لابد أنك الرائد (خالد).

سأله (خالد): هل أفهم من هذا أن (يوسُف) زارك بالفعل وأخبرك عني؟

أفسح الرجل مجالًا لهما ليدخلا وقال: فلتتفضلا أولًا فلست عديم الذَّوق لكي نتحدث هكذا.

أدخلهما وأجلسهما وهمَّ بدخول المطبخ ليصنع لهما كوبين من الشاي، إلا أن (أشرف) استوقفه قائلًا: اعذرني يا أستاذي ولكن ليس هناك وقت لهذا، هل زارك (يوسُف) بالأمس؟ فهاتفه مغلق ولم يذهب إلى الفندق ونخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

- نعم يا ولدي، لقد زارني بالأمس طالبًا نصيحتي بعد أن أخبرني بتفاصيل ما حدث له منذ اختطافه من منزلي.

- حسنًا هذا جيد، هل أخبرك إلى أين سيتوجه؟

- هو لم يخبرني، أنا طلبت منه بالتوجه لمكان ما ولكنه لم يؤكد إن كان سيفعل ذلك أم لا.

قال (خالد) في حدة: لماذا؟ إلى أين طلبت منه الذهاب تحديدًا؟

قال الرجل في حذر: طلبت منه الذهاب إلى والده.

بدت علامات الذعر على وجه (أشرف) وانتفض (خالد) واقفًا وصاح بحدة: ماذا؟ هل طلبت منه الذهاب بنفسه إلى ذلك القاتل؟ ألم تفكِّر أنك بهذا تعرِّض حياته للخطر؟

أجاب بهدوء: هذا القاتل الذي تتحدث عنه هو والده، وإن كان يريد إيذاؤه فقد كان باستطاعته فِعلَ هذا حينما اختطفَهُ من هنا.

تابع (خالد) بنفس الحدة: ها أنت ذا تقول أنه اختطفه، ولقد أطلق الرصاص عليه حينما رآه بالمنزل ذات مرة، فما بالك لو رآه ثانية يدُق بابه بعد كل ما حدث.

قال (أشرف): اهدأ يا (خالد)، لن يُحَل الأمر هكذا.

والتفت إلى الأستاذ (رضوان) قائلًا: اعذره يا سيدي، فلقد بذلنا مجهودًا كبيرًا لنخلِّصه من المكان الذي احتجزه فيه والده في المرة السابقة، وإذا ذهب إليه ثانية لن نستطيع تحريره هذه المرة.

- لو ذهب إليه طواعية ليستمع إلى ما عنده، أعتقد أنكما حينها لن تحتاجا إلى المحاولة من الأساس.

صاح (خالد): وما أدراك؟ هل تعرف شيء لا نعرفه؟

- نعم يا ولدي، أعرف (مختار الكيال) جيدًا وأعرف أنه ليس بقاتل.

تابع (خالد) وقد تصاعدت حدته: هذه المرة لن أساعدك يا (أشرف)، لو ذهب إليه بالفعل فمن الآن وصاعدًا أنتما وحدكما، كفاني ما حدث لي من تحت رأس هذا القاتل.

ثم نظر إلى الأستاذ (رضوان) قائلًا: أما صديقك هذا فسأثبت لك أنك مخطئ يا سيدي، وسأثبت للجميع أنه قاتل.

قالها وانصرف تاركًا (أشرف) يحدق في الأستاذ (رضوان) ولازالت علامات القلق والفزع تحفر آثارها على وجهه.

******

وسَطَ الطرقات المزدحمة والسيارات المندفعة التي تزُوم بغلظة كلما مرت بجواري وترتفع أصوات أبواقها لتعزف لحنًا من الفوضى أخذت أمشي بهدوءٍ متطلعًا إلى وجوهِ الناس من حولي، ما بين وجوهٍ ضاحكة وأخرى باسرة أرى حكايا تُروى بدون كلماتٍ وقصصًا مُضنية ولحظات مبهجة تكاد تُعرِّف عن نفسها في وجوه أصحابها، وذلك الطفل الذي لا يتعدى سنواتٍ خمسٍ يصرخ حانقًا على والده الذي لم يجلب له اللعبة التي أرادها، ووالده يسترضيه بعاطفة تكاد تقفز من عينيه لتحتوي طفله ويخبره أنه سوف يشتريها له ولكن ليس الآن.

قفز سؤال عفوي إلى ذهني، هل يتخيل هذا الطفل يومًا أن يطلق هذا الوالد الحنون عليه النار ذات يوم.

تحسست جرح عنقي بتلقائية وتابعت سيري وأنا أفكر في طلب الأستاذ (رضوان)، كيف يفكر بأنني سأوافق على هذا الطلب بعد كل ما فعله والدي، حتى وإن وافقت كيف سألقاه بعد إطلاقه النار عليَّ واختطافه وحبسه لي؟ وبم سأناديه؟ أأناديه بأبي وهو لم يعد أبًا لي منذ سجنه لي لأكثر من خمس سنوات دون أن يفكِّر حتى كيف أُبلي في محبسي وسط القتلة ومروِّجي المخدرات، هل فكَّر يومًا بكَمِّ المعاناة التي لاقيتها حتى أتفادى بطش زمرة المجرمين التي كانت تجاورني في زنزانتي، هو لا يعرف شيئًا عن التعاويذ التي علمني إياها السيد (شوقي) والتي لولاها لكنت أغسل ملابس السجناء الداخلية

وأنظِّف مخلَّفاتهم، كان يمكنني التغلب عليهم فرادى أو مَثنى أو حتى ثلاثة منهم مجتمعين، لكن فرصتي تكاد تكون معدومة في مواجهة خمسة عشر رجلًا يأتمرون بأمر واحد منهم، فبكلمة واحدة منه كان يستطيع أن يجعل مني كومة من العظام بلا ملامح ويدَّعي أنني تعثرت وسقطتُ على مجموعة من السكاكين الغير موجودة من الأساس لكونها ممنوعة، وسيصدِّقه المُسَيَّر والأمين اتقاءً لشرِّه، ولكنني استطعت ترهبيهم ببعض التعاويذ التي تعلمتها وحماية نفسي وصديقَيَّ منهم، هل فكَّر يومًا أنه سيكون قاتلًا لولده الوحيد لو تغيَّر اتجاه الرصاصة سنتيمتر واحد، لقد وقف ببرود الدنيا يصوِّب مسدسه عليَّ وأطلق النار، ولولا فضلٌ من الله لسقطتُّ صريعًا تحت قدميه خاصة أنه لم يخطئ يومًا هدفه، نعم لقد كان راميًا ماهرًا معروفًا بدقَّته في إصابة أهدافه وكان دومًا يتفاخر بذلك، فكيف إذن أخطأه في تلك المرة؟ هل يمكن ألا يكون قد أخطأ هدفه هذه المرة أيضًا وكان يتعمَّد جرحي دون قتلي؟ هل يمكن أنه كان يحاول إخافتي وترهيبي لعدم العودة إلى السيد (شوقي) مرة أخرى؟

تقافزت العديد من الأسئلة إلى ذهني دفعة واحدة: إذا كان يعرف أنه شيطان وليس وسيلة للخلود فلم يسعى إليها؟

وإذا كان يسعى ليكون (ديباك) بالفعل فكيف لم يستطع أن يكسر حماية الغرفة ويدخل ليجلب السكين؟

إذا كان قد استطاع الحصول على تعويذة لاحتجاز الشيطان وتعويذة لمنعه من دخول جسدي بكل سهولة، فكيف لم يستطع الحصول على تعويذة لكسر حماية الحجرة؟

هل يُعقَّل أنه لا يحاول الحصول عليه، وأنه فقط يريد أن يبعدني عنه، لهذا قام بحبسي حتى يبعدني عن المنزل بأي طريقة لِئلَّا أحاول الوصول إلى السيد (شوقي)، ولأنه يعلم أنني لن أستسلم بسهولة.

وجدت نفسي أقول بحنق: اللعنة، لقد كان يحاول حمايتي.

******

٦. المُوَاجَهَة

أمام بوابة الفيلا الفاخرة التي اعتدت في طفولتي الركض في فنائها واللعب في أرجائها والتي طُرِدتُّ منها منذ أسابيع قليلة ذليلًا صاغرًا وقفتُ أنادي على الحراس الذين قاموا بطردي آنفًا، وما إن رآني أحدهم حتى أسرع نحوي قائلًا: أرجو المعذرة يا سيد (يوسُف)، لقد أعلمناك مسبقًا أن والدك أعطى تعليمات مشدَّدة بعدم دخولك المنزل.

قلت بصرامة: أخبر والدي أنني هنا وأنتظره.

- أخبرتك أن والدك لا يريد...

قاطعته صائحًا: قلت لك أخبره بذلك أيها الأحمق.

وقف الرجل متحيِّرًا مترددًا لثوانٍ قام بعدها برفع هاتفه النقَّال متصلًا برقمٍ ما وتحدَّث فيه قائلًا: أخبر (مختار) بك أن السيد (يوسُف) موجود أمام البوابة ويريد مقابلته.

سكت قليلًا ثم قال بنفاذ صبر: قلت لك أخبره.

مضت دقائق ثم ارتفع رنين هاتفه فأجاب مستمعًا لمحدثه، ثم أفسح المجال أمامي للدخول قائلًا: تفضل يا (يوسُف) بك.

كان لوقع الكلمة رنينًا محبَّبًا في أذني، فقد كان أمناء الشرطة ينادوننا بلقب المسجون أو المحكوم، والسجناء ينادونني بالدجال، لهذا كان لكلمة "(يوسُف) بك" وقعًا مختلفًا عن السابق.

عبرتُ البوابةَ وسِرتُ على الطريق المَمَهَّد وسط الحديقة الواسعة أتأمل أشجارها التي كنت يومًا أحفظ أماكنها وأسماءها حتى وصَلْتُ إلى الفيلا وما إن دخلتها حتى وجدت والدي جالسًا على أحد المقاعد في الردهة الواسعة بانتظاري وعلى وجهه علامات الترقب وقال: لم أكن أتوقع قدومك إلى هنا بأي شكلٍ من الأشكال.

أجبتهُ قائلًا: أنا أيضًا لم أكن أتوقع أن آتي ثانية إلى هنا تحت أي ظرفٍ من الظروف.

نادى على أحد الخدم الذي ما إن رآني حتى تهلَّلت أساريرُه وأخذَ يرحِّب بي مستحضرًا جميع عبارات الترحيب التي يعرفها فقال والدي: كوبين من القهوة المظبوطة يا عم (جاد).

جلست على مقعد مقابل له وقلت: سادة، أحضر لي قهوة سادة.

قال بدهشة: أرى أنك قد غيَّرت بعضًا من عاداتك.

- سيدهشك كثيرًا مدى صعوبة الحصول على القهوة في السجن وإذا حصلت عليها قد لا تتمكن من الحصول على القليل من السكر، لذا فتناولها خالية منه أفضل من عدم تناولها على الإطلاق، وبالطبع ستعتاد ذلك بمرور الوقت.

بدت ملامحه جامدة كالمعتاد وهو يقول: أظن أنك لم تأتِ إلى هنا لتأنيبي حول عدم استطاعتك تناول القهوة في السجن.

أكملت عبارته: السجن الذي وضعتني فيه.

- لماذا أتيت يا (يوسُف)؟

- لأقول لك أنك أحمق، أنت وغدٌ أحمَق لم تفكر في تداعيات قرارك.

بدا الغضب واضحًا على وجهه ولكنه حاول أن يبدو هادئًا وقال: حسنًا، إن كان هذا ما تريد قوله فلقد سمعت ما لديك، يمكنك الانصراف الآن.

قالها ونهض من مقعده وهَمَّ بالانصراف فقلت بسرعة: ماذا يوجد على صدرك؟

التفت إليَّ قائلًا: ماذا تعني؟

- يوم أن اقتحم (أشرف) المكان، كنت تفك أزرار قميصك لتريني شيئًا ما، ما هو؟

فك أزرار قميصه ثانية وكشف عن جانب صدره الأيمن ليظهر وشمًا مطابقًا للوشم الذي وسمني به أثناء فقداني وعيي، مما أكد لي ظنوني في أنه لا يريده لنفسه، فلو كان يريد الاستيلاء عليه ما وشم نفسه بالوشم الذي يمنع دخول ذلك الشيطان إلى جسده، فقلت في حنق: كان يمكنك أن تخبرني.

- أخبرك بماذا؟

- تخبرني بأن أسطورة الخلود هذه خدعة وأن عائلتنا تسيطر على شيطان منذ قرون تنقله من فرد إلى فرد طمعًا في قدراته وأنك كنت تحاول أن تمنعني من إدخال شيطان إلى رأسي بمحض إرادتي.

نظر إليَّ طويلًا في صمت فتابعت: كان يمكن أن تخبرني هذا وتثق في أنني لن أقبل بحدوث هذا إذا تبيَّنتُ حقيقته.

جلس ثانية على مقعده وقال ببطء: يبدو أنك بدأت تمسك بأطراف الخيوط ولكنك لم تصل بعد إلى كبدِ الحقيقة.

- والتي هي؟

- عائلتنا لم تسيطر على هذا الشيطان كما تظن، بل إننا لا نعرف حتى الآن ماذا يكون، ولكنها تقوم بحبسه، فمنذ أكثر من ألفَي عام وعائلتنا تأخذ مهمَّة حبس هذا الكيان على عاتقها تمنعه من الخروج إلى العالم حتى لا يعود للسيطرة مرة أخرى على عقول البشر بعد أن ابتكر أحد أسلافنا إكسيرًا ما يساعد على تقوية ذهن من يشربه بصورة غير مألوفة بحيث يتمكن هو من السيطرة وليس ذلك الكيان، ينتقل الكيان عبر طعن الحامل الجديد لسلفه بسكين مسحور فينتقل إليه الكيان مصحوبًا بهذا الوشم العجيب الذي يبقيه مسجونًا داخل جسد حامله، ويُحبَس في غرفة محجوبة كتلك التي بها السكين بالأسفل، ولا يخرج منها إلا إذا تم التأكُدِ من أنَّ الحامل الجديد هو من يسيطر على الجسد وليس الكيان، فإذا تبيَّن ذلك تم السماح له بالخروج.

- وإذا حدث العكس؟

- يتم إحضار البديل، شابٌ آخر يشرب الإكسير ويقتل الشاب الذي سبقه لينتقل إليه الكيان والوشم ويتم التعامل معه بنفس الطريقة وهكذا حتى ينجح أحدهم في السيطرة عليه.

- لهذا لم تسمح لهم بالقيام بذلك معي؟

أجاب في حدة: ألم تفهم بعد؟ في كلتا الحالتين ستحدث كارثة، في حالة النجاح فأنت تسمح لهذا الشيء أن يكون بداخل رأسك طوال حياتك، وفي حالة الفشل عليَّ السماح لهم بقتلك واعتبارك مجرد تجربة فاشلة، لم أكن لأسمح لهم بهذا قط، أنا على استعداد لوضع رصاصة في رأسك بنفسي خيرًا من أن أضع ذلك الشيء بها، اعتبرني وحشًا كما تريد ولكنني مستعدٌ لقتلك بالفعل على أن أفعل هذا بك.

- ولماذا لم تخبرني كما أخبر عمي (صلاح) ابنه؟

- هذا الوغد علِم مؤخرًا بالأمر، لقد أخبره (شوقي) بهذا، فعلى الرغم من تفوُّق (أشرف) في أغلب المجالات إلا أنه كان يريدك أنت، كان يرى أنك تمتلك عقلًا قويًا وذهنًا صافيًا أكثر بكثير من ابن عمك، لهذا أخبر (صلاح) الذي افتعل إصراره على دخول ولده لكلية الطب ليخرجه من المنافسة بدون إثارة شكوكي، وبهذا أصبح هو البديل إذا لم تتمكن أنت من السيطرة عليه.

سكَتَ قليلًا ثم تابع: كلهم كانوا على علمٍ بالأمر، كلُّ أبناء عمومتي كانوا يعلمون هذا منذ فترة ليست بالقليلة إلا أنا و(صلاح) كانوا يخدعوننا بخدعة الخلود السخيفة تلك لأننا آباء المرشحين،

ومهمتهم كانت تنفيذ عملية الانتقال ولو بالقوة إذا حاول أيٌّ منا وقفها، أنا لم أضعك بالسجن لأنك كنتَ ستصِرُّ على فعلها كما تتخيل- وإن كان هذا أحد الأسباب- إنما السبب الرئيسي كان لأبعدك عن هؤلاء الحثالة حتى لا يستطيعوا إجبارك على عملية الانتقال، السجن كان هو المكان الوحيد الذي لن يستطيعوا الوصول إليك فيه.

- ولماذا قتلتهم طالما أنك أبعدتني عنهم؟

صاح بغضب: هل هذا ما تظنه بي؟ أنني سفاح أقتل كل من يقف في طريقي.

فضَّلتُ الصمت على الإجابة التي لن تعجبه بالتأكيد فتابع: لقد حاول (صلاح) قتلي عندما أخبرته أنني سوف أخبرك بكل شيء ولن أسمح لهم بإتمام الأمر وكان قتلي له دفاع عن النفس، والمقطع المصور من كاميرات المراقبة التي ادَّعيتُ حينها أنها لا تعمل يستطيع أن يثبت هذا، أما عن البقية فليس لي يد في موتهم، هناك من يتربص بهذه العائلة ويعلم ما تفعله، ويريد أن يوجِّه أصابع الاتهام ضدي بتدبيره لهذا التنازل السخيف الذي كتبه (جابر) قبل موته، وعندما فشل حاول قتلي أنا أيضًا.

- ولماذا كتب عمي (جابر) هذا التنازل؟ من غيرك يمكن أن يجبره على هذا؟

- تستطيع أن تسأل القاتل عن هذا إذا وجدته، أما التنازل فقد قمت بإلغائه رسميًا وأشرفت بنفسي على انتقال أسهم (جابر) إلى

أطفاله، ووالدتهم تدير هذه الأسهم الآن بصفتها وصية عليهم حتى يكبروا، والآن هل من اتهامات أخرى؟

- بالتأكيد، أصدقائي الذين شهدوا ضدي من السهل الضغط عليهم من خلال آبائهم، ولكن كيف وضعت بصماتي على الخنجر؟

- الخنجر ليس عليه بصمات من الأساس، فلقد أزلت بصماتي وبصمات (صلاح) من عليه، وأظنك تتفهَّم أنه من السهل الوصول إلى الطبيب الشرعي والضغط عليه بحيث يكتب ما يُملى عليه.

ساد الصمت للحظات قطعته قائلًا: ولماذا لم تزرني في محبسي وتخبرني بهذا؟

- وماذا كنت ستفعل؟ هل كنت ستقوم بمعانقتي وتقبِّل يدي وتشكرني على إلقائي بك في السجن؟ هل كنت ستخرج لملاقاتي من الأساس عندما تعلم أنني الزائر؟

كان محقًا في هذا فلو خرجت يومًا للزيارة كما يفعل بقية السجناء ووجدتُّه في وجهي لعُدت من حيث أتيت ولن أخرج للزيارة مرة أخرى ولكنني صحت بانفعال: كان يمكك أن تجرِّب، كان يمكنك أن ترسل لي حتى بعض المال، فلولا المال الذي كان يرسله لي (أشرف) لم أكن أعرف كيف كانت ستمضي سنوات سجني.

صاح بحدة: وكم كان يُرسل إليك (أشرف)، هل تظن أنه بعدما غادر المنزل وظنَّ أنه اختفى عن ناظري سوف يتمَكَّن من أن يوفِّر لك هذا المبلغ وهو لا يزال طالبًا يدرُس، وحتى بعد أن تخرَّج ليعمل

طبيبًا بإحدى المستشفيات الحكومية، أتَظُنُّهُ كان يستطيع فعل هذا؟ لقد كنت أنتظر اليوم الذي يذهب فيه إليك ليضع المال باسمك وأجعل أحد أمناء الشرطة يضع في نفس اليوم عشرة أضعاف ما يضعه (أشرف).

ساد الصمت ثانية للحظات قلتُ بعدها وأنا أتحسس موضع الإصابة في عنقي: هذا لن يغير من الأمر شيئًا لازلت لن أسامحك على ما فعلته بي.

قال محاولًا أن يبدو هادئًا: أعلم هذا، كما أنك تعلم في قرارة نفسك أنني لا أخطئ الهدف أبدًا، كل ما كنت أريده هو إخافتك حتى لا تقابل إلى (شوقي) مرة أخرى.

همَمْتُ بالانصراف فقال: يمكنك أن تبقى لفترة بدلًا من هذا الفندق القذر الذي تمكُث فيه.

قلت بقسوة: أنا أفضل هذا الفندق القذر على البقاء معك.

قلتها وخطَوْتُ تجاه الباب إلى أن وقفت فجأة محاولًا استيعاب تلك العبارة التي قالها ليستوقفني: أرجوك أن تبقى.

لم يكن والدي ليرجو أحدًا أبدًا حتى ولو كان ابنه، فالتفتُّ إليه لأجده يتصنع النظر في هاتفه ليتحاشى النظر في عيني، كان ضعيفًا بحق ولكنه يحاول ألا يُبدي هذا، لا أدري لماذا تذكرت فجأة عبارته عند إلقاء القبض عليَّ وهو يخبرني أنه يحبني، فجلست ثانيةً في صمت فقال بنفس الملامح الجامدة: شكرًا.

حقًا أهذا كل ما لديك؟ "شكرًا"، يا لك من أحمق، ألا تستطيع أن تعانق ولدَك الذي تدَّعي أنك فعلتَ كُلَّ هذا من أجله، عانقني أيها الأحمق، افعلها وسأسامحك على كل ما حدث، عانقني وسأدفن رأسي في صدرِك وأبكي حتى تشرقَ ألفُ شمسٍ وتغرُب، أنا لستُ مراهقًا ألتمسُ عاطفة أُسكن بها لوعتي، أنا رجلٌ بالغٌ اشتقتُ إلى والـدي الذي كنت أمتلك كل أسباب الدنيا لكي أكرهه ولكنني فقدتُّها فجأة فَفَقَدتُّ معها كل دروعي الحصينة التي تحميني من إلقاء رأسي على كتفه وإخباره باحتياجي إليه، لكنه بالطبع لم يفعل ذلك، بل تابع بنفس ملامحه الجامدة: لقد أبقيتُ غرفتك نظيفة وملابسك مرتبة، حتى نقودك التي كنت تخفيها في خزانتك لشراء هدية لحبيبتك أبقيتها كما هي ولكنك سبقتني إليها بالطبع. لا أمل في هذا الرجل، كعادته يُعلمني بطريقته الخاصة أنه يعلم كل شيء عني، حتى ما كنت أتوَهَّم أني أخفيه عنه، فقلت: حسنًا ولكن ماذا عن السيد (شوقي) ؟

قال بحذر: ماذا عنه ؟

- إلى متى ستظل تحتجز ه؟

- أنا أحاول أن أعامله معاملة تليق به في سنواته الأخيرة، ففي النهاية هو أحد أجدادي، ولكن بمجرد أن يذبل جسده ولا يستطيع التحمل سيخرج هذا الشيء من جسده وسيبقى حبيس الغرفة إلى أن يشاء الله، لن يستطيع الخروج منها بفضل تعويذة الحجب

وسأبني حوله جدارًا خراسانيًا بسمك مترًا كاملًا بحيث تكون هذه مقبرته التي لن يخرج منها أبدًا.

- هل تعتقد أن التعويذة هذه ستظل تحتجزه حتى بعد خروجه من جسد السيد (شوقي)؟

- من أعطاني إياها أكَّد لي هذا.

- أيمكنني اللقاء به؟

سأل بقلق: لماذا؟

- هناك من يطارد هذا الشيطان وإن كان هناك أحدٌ يعرف عنه شيئًا فأعتقد أن السيد (شوقي) سيكون ذلك الرجل.

- وما أدراك؟

قصَصْتُ له أحلامي كلها وأخبرته أن المرة الوحيدة التي نجا فيها من مُطَارِدِهِ هي تلك المرة التي وصل فيها إلى ذلك الكاهن المصري الذي قام بحبسه.

بدت عليه علامات القلق وقال: لقد أخبرتني عن ذلك الكابوس الذي ظلَّ يراودك لأكثر من عام، منذ متى وأنت ترى بقية هذه الأحلام؟

- منذ خروجي، وبالتحديد منذ مقابلتي للسيد (شوقي) يوم أطلقت النار علي، لا أعرف ما الصلة بينهما ولكنه بالتأكيد يعرف.

- دعني أنظر في هذا الأمر.

- أمرٌ أخير، هل يمكنني أن أحصل على المقطع المصور الذي أخبرتني عنه؟

بدت نظرة استياء على وجهه فتابَعْتُ: ليس من أجلى ولكن هناك من يستحق أن يرى هذا المقطع.

قال باقتضاب: ستجده على حاسبك النقَّال في غرفتك، لقد وضعته عليه تحسُّبًا ليومٍ تطلب فيه معرفة حقيقة ما حدث.

ارتفع صوت أذان الفجر من المسجد المجاور للمنزل فتابع: لقد تأخر الوقت كثيرًا، تعال لنصلي سويًا ثم لتـَنَـل قسطًا من النوم ولنكمل حديثنا عندما تستيقظ.

******

٧. شَيْطَانُ العَائِلَةِ

أخرجتُ رأسي من تحت سطحِ الماءِ أشهق بقوَّة لأملأ رئتيَّ بالهواء بعد أن قمت بحبس أنفاسي لمدة ثلاث دقائق كاملة في مياه حوض الاستحمام، كانت هذه هوايتي المفضلة منذ طفولتي أثناء الاستحمام أو ممارسة السباحة وتمرنت عليها كثيرًا إلا أنني مازلت لا أستطيع الامتناع عن التنفس لأكثر من تلك الدقائق الثلاث، صعدتُ الليلة السابقة إلى غرفتي القديمة بعد أن صليتُ الفجر مع والدي ورَقَدْتُ على فراشي أحدق في كل ركنٍ فيها حتى رحتُ في سبات عميق لم أستيقظ منه إلا في الساعة الرابعة عصرًا، لا أعتقد بأنني نمت كل هذه المدة بشكل متواصل منذ سنين، حتى تلك الكوابيس المعتادة اسْتَحَتْ أن تؤرِّقني في تلك الليلة التي عدت فيها لغرفتي وفراشي العزيز.

أنهيتُ اغتسالي وأعدت تشغيل هاتفي لأتصل بـ(أشرف) وكلِّي يقين بأنه لن يوافق على هذه التغيرات المفاجئة، ولكن كان من حقه أن يعرف بذلك المقطع المصور الذي أخذت أشاهده مرة تلو الأخرى وأشاهد أبي وعمي وهما يتجادلان بحدَّةٍ ولكن المقطع لا يظهر الصوت ثم يقوم عمي باختطاف الخنجر الأثري المعلق على الحائط ويحاول طعن والدي إلا أن والدي يتفاداه بصعوبة ويحاول إبعاد يد

عمي الممسكة بالخنجر والأخير يزيد الضغط به حتى خارت قواه دفعة واحدة بشكل أدى لانغراس الخنجر في صدره.

أجاب اتصالي وجاءني صوته في لهفة: أين أنت يا (يوسُف)، لقد كنا نبحث عنك في كل مكان؟

قلت معتذرًا: معذرة يا (أشرف) ولكن حدثت بعض الأمور التي اضطررت معها لإغلاق الهاتف لأتمكن من التفكير بصفاء.

- هل ذهبت إلى والدك؟

قلت بدهشة: كيف عرفت؟

- لقد بحث (خالد) عنك في كل الفنادق المجاورة لذلك الفندق الذي كنت تقطن به، ولمَّا لم يجدك وكان هاتفك مغلقًا لم نجد سوى أن نذهب للأستاذ (رضوان) لعلَّك تكون قد ذهبت إليه وأخبرنا بأنه نصحك بالذهاب إلى والدك.

- نعم لقد ذهبت إليه وأنا في منزلي الآن؟

- هل جننت يا (يوسُف)؟ ألا تتذكر لقاءك الأخير به وكيف أنقذناك بصعوبة منه؟ كيف تذهب بقدمك إليه؟

- الأمر مختلف الآن.

وقصصت عليه ما حدث منذ مغادرتي لمنزل الأستاذ (رضوان) وبكل ما أخبرني به والدي وكان رد فعله كالمتوقع حيث قال: وتريد مني تصديق هذا، كيف استطاع أن يخدعك بهذه السهولة؟

أخبرتُه أنني أرسلت إليه مقطعًا مصوَّرًا على بريده الإلكتروني القديم وعليه أن يشاهده فأنهى المكالمة ليحدثني بعد دقائق ليقول: أنا لا أدري ما الخدعة التي يقوم والدك بتدبيرها؟ ولكنني لا أثق بهذا الرجل، ارحل من عندك يا (يوسُف)، ارحل قبل فوات الأوان.

- لن أفعل، فهو لديه معلومات أكثر بكثير مما توصلنا إليه، كما أنه لابد لي من ملاقاة السيد (شوقي) لأفهم حقيقة تلك الكوابيس التي تراودني.

- أنت تعلم أنني لن أستطيع مساعدتك طالما أنت في هذا المنزل.

- لماذا؟ يمكنك المجيء في أي وقت ولن يتعرَّض لك أحد، هو في الأساس يعلم كل شيء عنك حتى عنوان مسكنك.

- لا، لا يمكنني المخاطرة، كما أن (خالد) لن يوافق على هذا قط، فقد انسحب بمجرد علمه بأنك سوف تذهب إليه، أنت تعلم ماذا فعل به والدك؟

- سأحاول إقناع والدي بحل هذه المشكلة، ولكن فكِّر في الأمر، سوف أقابل السيد (شوقي) ثم أعيد الاتصال بك.

ارتفع صوت طرقات على باب الغرفة، ودخل عم (جاد) ليخبرني أن والدي ينتظرني لتناول الغداء، فأنهيت ارتداء ملابسي ولحقت به على المائدة، لا أعرف كيف تبدَّلت مشاعري نحوه بهذه السرعة، أصبحت فجأة أثق به على الرغم مما سبَّبَته لي هذه قراراته من متاعب، بالطبع لم أخبره بهذا إلا أنني كنت على استعداد لتفهُّم كل

ما فعله، كرَّرت طلبي لمقابلة السيد (شوقي) فاصطحبني إليه بعد أن أنهينا تناول الطعام، لم يستطع الرجل أن يخفي دهشته من دخولنا سويًا من باب حجرته وقال بتهكم: أرى أن العائلة قد تمَّ لمَّ شملها من جديد.

قال أبي: بالطبع لا يعود الفضل إليك في هذا.

- لا تخدع نفسك يا (مختار)، لا يمكن أن يتصالح الذئب مع الحمل، أنت قاتل وستغدُر بولدك في أقرب وقت كما غدرت به مسبقًا.

قلت: لا داعي للاستمرار في هذا الهراء يا سيدي، فكلانا نعلم سبب ما أقدم عليه، دعك من هذا ولتخبرني القصة من البداية.

- أية قصة؟

- من الذي يطارد (ديباك)؟ وما قصة الأحلام التي تراودني؟

- أية أحلام؟ وما أدراك بأن هناك من يطارده؟

- كان هناك حلمًا يراودني منذ أن بدأت تعليمي تلك الطقوس المظلمة، وبعد خروجي من السجن أصبحت تلك الأحلام تأتيني تَتْرًا تخبرني كم مرة حاول فيها مُطارِدُه قتله، حتى تلك المرة التي استطاع فيها الهروب، كل هذا رأيته وعشته في أحلامي.

- هل ستصدقني إن قلت لك أنني لا أعرف؟

- بالطبع لا.

- إذن عليك أن تعرف أنه بالرغم من أنني أنا المسيطر على هذا الجسد إلا أنني لا أسيطر على عقله، أنا فقط أحجبه، أعلم فقط ما يسمح لي هو بمعرفته عن حياته -وهو قليل- فهو بخيل جدًا كمصدر للمعلومات أما مصدر قوتي الحقيقية فهو من خلال عقل أسلافي، ذاكرة ألفي عام تنتقل إليك دفعة واحدة، كل من سبقوني انتقلَت إليَّ تفاصيل حياتهم مع هذا الوشم الملعون، خبراتهم، أحلامهم، ثقافاتهم، لغاتهم، وحتى آلامهم، سيل من المعلومات والذكريات لا يمكن لأي عقل تحملها إلا لو كان عقلًا قويًا.

وسكت قليلًا ثم تابع: مثل عقلك يا (يوسُف).

قال أبي بحدة: لا شأن بعقله.

- لا يمكنك إنكار مميزات الأمر يا (مختار)، أن تحيا ما يزيد على القرنين من الزمان محتفظًا بشبابك وقوتك مقابل أن تُدخِل هذا الشي في رأسك وتكون أنت المسيطر دائمًا، فقط مجرد نقاشات وحوارات تدور بينكما تستطيع إنهاؤها وقتما تريد، تبدو لي هذه صفقة متميزة ينبغي لرجل أعمال مثلك ألا يُفلتها.

تابع أبي بحدة أكبر: إن لم تتوقف عن هذا فسوف نخرج ولن تراه مجددًا.

تجاهله الرجل والتفت إليَّ وتابع: لقد مرَرْتُ بما مررتَ به يا (يوسُف)، ولقد كان صعبًا للغاية، فلقد خضت منافسة مع شقيقي الأكبر لن تتخيل كيف كانت شرسة، حتى أن سلفي كان سيرسلنا إلى

السودان في الحملة العسكرية التي أرسلها محمد على باشا لضمِّها، على أنَّ من سيعود منا سليمًا من الحرب سيكون هو اللائق ليحل محله، إلا أن الوالي لم يكن قد بدأ بعد بتجنيد المصريين لذلك لم يشارك جندي مصري واحد بهذه الحملة، وعلى الرغم من صلته الوثيقة بإسماعيل كامل باشا قائد الحملة إلا أنه لم ينجح في ضمِّنا إليها فنجونا من الحربِ بأعجوبة.

قلت متهكمًا: أراهن كنت ساذجًا مثلي ولم تعرف شيئًا عن هذا الشيطان الذي أدخلته برأسك.

- بالطبع كنت أعلم، الجميع كان يعلم، ومع هذا كنا نسعى جاهدين للحصول على هذه الهبة التي ترفضها أنت بكل سهولة، لقد لجأت إلى خدعة الخلود هذه حديثًا عندما بدأت ألحظ التغييرات الفكرية التي حدثت مؤخرًا على هذا الجيل، حيث أنه لن يتقبل أحدكم فكرة مشاركة عقله مع كيان آخر، فأنتم لا تسمحون بمشاركة أسراركم مع والدَيكم فما بالك بمشاركة عقولكم بشكل كامل.

سألته: دعك من هذا الأمر وأخبرني ما الذي تعلمه عمن يطارده؟

- أعلم أنه أقوى منه وفي كل مرة يلامسه فيها يحدث انفجار قوي يتسبب في مقتل الجسد الذي يحمل كليهما بل ويتسبب في مقتل كل من حوله.

- لهذا كنت أشعر بأن جسدي ينسحق، فمهما كانت طريقة الموت أشعر أنني كما لو كنت في مركز انفجار، كل مرة يلامسني فيها

كنا ننفجر سويًا، وبالطبع كان يبحث عن جسد جديد، ولكن لماذا، لماذا ينفجران؟

- هو يعتقد أنهما نوعين متضادين من الطاقة، بمجرد تلامسهما يحدث انفجارًا قويًا نتيجة لعدم توافقهما سويًا وهذا هو ما يحافظ على طاقتهما من التشتت، ففي كل مرة كان مطارده يستطيع التشبث به أكثر من سابقتها فكان يشعر بكيانه يكاد يتشتت أكثر في كل مرة، وفي آخر مرة كاد يحدث هذا بالفعل لولا هذا الانفجار الذي أنقذه في اللحظة الأخيرة، وهو يعتقد أنه لو حدث وتلامسا مرة أخرى ستتشتت طاقة كليهما لذا فهو يهرب منه بكل قوته.

- هل هو من أخبرك بهذا؟

- نعم.

- ومع هذا لم يخبرك بماهيته؟

- قلت لك من قبل، هو يقول ما يريد فقط، ولا أستطيع إجباره على البوح بما لا يريد.

- حسنًا، هذا يعني أننا إذا عثرنا على من يطارده وجعلناه يلامسه مرة أخيرة، فمن الممكن أن نتخلص منه إلى الأبد.

سكت قليلًا وأجاب: إنه يخبرك بأنك لن تريد أن تفعل هذا.

- هل يسمعني؟

- بالتأكيد.

- ولماذا لا أريد أن أفعل هذا؟

- على حد قوله فهما أشبه بما نعرفه الآن بالمادة والمادة المضادة، ليس بنفس الشكل الذي نعرفه، ولكنه يقول إنه أقرب مثال يمكن أن يوضح به.

- هذا يؤكد ما قلته من قبل، إن لامسا بعضهما لفترة كافية فسيتلاشَيَا تمامًا فالعنصر المكون من المادة المضادة لو حدث والتقى بعنصر مكون من المادة فسيحدث نوعًا من التعادل الكهربي ويتلاشى كلاهما.

- هذا صحيح، ولكنه سيكون مصحوب بانفجار قوي قد يدمر نصف القاهرة نظرًا لحجم الطاقة التي نتحدث عنها، وصدقني يا ولدي هو محق فيما يقوله وأنت تعرف هذا فلقد عشت مثلي قوة هذه الانفجارات التي تحدث عند لقائهما.

كيف لم أنتبه لهذا، الشعور بالألم يزداد قوة لأن مدة تلامسهما تزيد في كل مرة فيحدث انفجار أشد من الذي سبقه، إنه محق، انفجار كهذا الآن سيدمر معه جزء كبير من القاهرة، ولا أستطيع أن أسمح بهذا قط، شعرت بالحيرة فلاحظ والدي هذا وقال: هذا يكفي الآن، فلنغادر ولنبحث في هذا الأمر لاحقًا.

تركتُه يمسك بذراعي ويسير بي إلى خارج الغرفة، وفجأة تذكرت شيئًا فالتفتُّ إلى السيد (شوقي) وسألته: ماذا يوجد في المعبد؟

- أي معبد؟

- معبد (أباداماك) الذي طلبت مني أن أذهب إليه.

- ولماذا أطلب منك شيئًا كهذا؟

قال أبي: لا يوجد شيئًا هناك، لقد زرته بعد أن رأيت الورقة التي كانت بجيبك ولم أجد هناك سوى مزارًا أثريًا، بعض الجدران القديمة منقوش عليها بعض الرسومات.

نظرت إلى والدي في حيرة وقلت: إذن لماذا طلب مني الذهاب إلى هناك وكأنني سأجد حلولًا لكل شيء.

قال السيد (شوقي): مرة أخرى، أنا لم أطلب منك الذهاب إلى هناك.

- لقد أعطيتني ورقة مكتوب فيها اسم المعبد ومكانه عندما تسللت إلى المنزل وقابلتك بعد خروجي من السجن وطلبت مني الذهاب إلى المكان المكتوب فيها.

- أنت تسللت إلى المنزل وقابلتني بعد خروجك من السجن وأنا أعطيتك ورقة؟ أهي خدعة جديدة تنفِّذها مع والدك؟

صاح أبي بغضب: من الواضح أنك أنت من تحاول ممارسة خدعة ما لا أفهم مقصدها، لماذا تنكر حدوث هذا؟

صاح الرجل بقلق لم أعهده عليه: لأنه لم يحدث، أنا لم أقابل (يوسُف) بعد خروجه من السجن.

قلت بحيرة: إذن من الذي قابلني؟

وقع سؤالي على مسمعه كالصاعقة وعَلَت وجهَه علامات الفزع وهو يقول: لو كان ما تدَّعيه صحيحًا، فهذا يعني أنك قابلت (ديباك)

وليس أنا، وبالتالي فهو يعني أن مفعول الإكسير قد بدأ في الزوال وأن الكارثة ستحدث عما قريب إن لم أمرِّرْهُ لك في أقرب وقت.

******

جلستُ على أحد المقاعد في غرفة مكتب الأستاذ (صفوت) أتجادل بحدة مع (أشرف) الذي كان رافضًا وبشدة فكرة تعاوني مع والدي مع أنني أكدتُّ له أكثر من مرة أنه ليس هو من قام بقتل أبناء عمومته، ولكنه أصرَّ بطبيعة الحال على كونه كاذب وأنه المستفيد الوحيد من مقتلهم.

كان الأستاذ (صفوت) يتابعنا في صمت حتى وصل نقاشنا إلى نقطة مسدودة فقال: دعونا نهدأ قليلًا حتى لا يتخذ أحدنا إجراءً قد يندم عليه لاحقًا، كفاكم مغادرة صديقكم الضابط لكم.

قلت بحدة: لماذا لا يستطيع أن يفهم أنني أكثر المتضرِّرين من تصرفات والدي وأكثر الحانقين عليه، إلا أنني لم أجد بالفعل أي شيء يدينه، وكان الأجدر بـ(خالد) أن ينتظر ويستمع مني قبل أن يتركنا هكذا.

قال (أشرف): (خالد) تعاون معنا في الأساس ليثبت أن والدك قاتل، إن كنا لن نساعده في إثبات هذا فما الذي يدعوه إلى مساعدتنا؟

- كل ما أخبرتك به عن الانفجار الذي يمكن أن يودي بحياة المئات بل الآلاف لا ترى أنه يستدعي مساعدته لنا؟

قاطعنا الأستاذ (صفوت) مرة أخرى قائلًا: هو محق في هذا الأمر يا (أشرف) حاول أن تتصل به وتخبره عن هذه المستجدات، وأظن أنه سوف يتجاوز قليلًا عن موقف (يوسُف) الحالي في سبيل إيقاف تلك الكارثة.

ساد الصمت للحظات أنهاها (أشرف) بقوله: حسنًا، سوف أتصل به وأنظُر قوله.

خرج من الغرفة وعلا صوته وهو يتناقش بحدة مع (خالد) فسألت الأستاذ (صفوت): هل من جديد في موضوع البحث عن هذا المُطارِد؟

هز رأسه في أسف وقال: للأسف لا، أحد الأساتذة بكلية الآداب بجامعة الخرطوم كنتُ قد تَعَرَّفتُ عليه في أحد المؤتمرات أرسل لي صورة رقمية من مخطوطة يقول إنها تتحدث عن (أباداماك) لأن رمز الأسد ذو الثلاثة رؤوس مرسوم عليها، وهو بالمناسبة رمز (أباداماك)، إلا أنها للأسف مكتوبة باللغة المروية التي لم يُعرف حتى الآن سوى طريقة نطق حروفها ومعاني قليلة جدًا لبعض كلماتها، والتي لن تفيدنا في ترجمة المخطوطة.

- هل يمكن أن أراها؟

أخرج صورة رقمية للمخطوطة وأعطاها لي فرُحت أتطلع إليها في صمت قطعه (أشرف) بقوله وهو يدخل الغرفة مجددًا: انس أمر (خالد)، لن يساعدنا مجددًا.

لم أجبه وإنما رحت أدقِّق النظر في المخطوطة ووجدت نفسي أقول: إنها بالفعل تتحدث عن (أباداماك) و(تويوي).

قال الأستاذ (صفوت) بدهشة: وما أدراك؟

- هذه الكلمات تحكي محاولة قتل الأول للثاني.

- وما أدراك بمعنى الكلمات؟

- أظن أنني أستطيع قراءتها فلو صحَّ ادعاء السيد (شوقي) حول أن خبرات وثقافات ولغات كل من سبقه قد انتقلت إليه، إذن فهو يستطيع قراءتها.

- وكيف انتقلت إليك هذه المعرفة؟

- لا أعلم، ليس هناك تفسير لهذا حتى الآن، كما أنه ليس هناك تفسير لتلك الأحلام التي تراودني عن حياته، أظنها الطقوس والتعاويذ التي كان يعلِّمني إياها الرجل نقلت جزءًا من وعيه إليَّ بطريقة ما.

هز الرجل رأسه بعدم استيعاب وقال: هل أنت متأكد أنك تستطيع قراءتها؟

نظرت إلى الصورة الرقمية وشرعت في قراءتها: لقد نشر الإله (تويوي) الفساد في الأرض، استولى على أرضنا وأَسَرَ شبابنا ولعن حكماءنا، حاول (أباداماك) قتله ولكنه هرب بعد أن قتل كاهن قبيلتنا، لن يستطيع قتله أحد غيره، لابد من وجود الأداة قبل لقاءهما، لا يجب أن يلتقيا دون الوسيط الموجود بالمعبد، احموها بأرواحكم.

قال (أشرف) بغباء: ما معنى هذا؟

-معناه أن كلام السيد (شوقي) صحيحًا، لقد كان (أباداماك) الذي كان في وقت ما هو من يطارد (ديباك) أو (تويوي) كما كان يُدعى في هذا العصر، يدبِّر طريقةً ما لقتله دون حدوث هذا الانفجار الذي يفتك بكل من حولهما، هناك أداة ما تعمل كوسيط بينهما تستطيع أن تقول إنها تعمل كموصل بين كتلتي الطاقة، وإذا تم التوصيل بينهما لفترة كافية سيتلاشى كلاهما إلى الأبد.

-ولماذا سيفعل (أباداماك) هذا؟ ما الذي يجعله يقتل نفسه في سبيل قتل (ديباك)؟

- أنت محق، هذا ليس مفهومًا على الإطلاق، كما لو أنه يوجد في المعبد وسيلة ما للتخلص من (ديباك) فلماذا يرشدني إليها بنفسه ويطلب مني الذهاب إلى هناك؟ هناك شيء ما مفقود في هذه الحلقة.

- ربما كانت خدعة ما يدبرها والدك و(شوقي) سويًا.

صحت في غضب: وبالنسبة لهذه المخطوطة التي تعدى عمرها الألفي عام، والدي أيضًا هو من قام بكتابتها؟!

صاح بدورِهِ: ماذا فعل بك هذا الرجل؟ أراهن أنه استعمل عليك تعويذة ما من تلك التعاويذ المظلمة، لا يمكن أن يتبدل موقف شخص ما تجاه شخصٍ آخر بهذا الشكل في أقل من أربعٍ وعشرين ساعة.

لا أدري لمَ بدت لي فكرة منطقية، فأنا شخصيًا كنت مندهشًا من هذا التحول المفاجئ تجاه والدي إلا أنني صحت بدوري: حسنًا، فلنترك كل ما لدينا من أمورٍ هامة، ولنجلس لنحلِّل علاقتي بوالدي فهي بالتأكيد أهم من هذا الشيطان.

همَّ بالرد وعلامات الغضب تغزو وجهه إلا أن الأستاذ (صفوت) الذي كان يبدو كالوالد الذي يفصل بين طفليه المتلاحيين استوقفه قائلًا: (يوسُف) على حق يا (أشرف)، فلْننظر كيف سنتصرف حيال هذا الأمر ثم لننظر في أمر والده لاحقًا.

صاح بحدة: وما المفترض أن نفعل؟

قال الرجل بحذر: أخشى أنه لابد من سفر أحدكما إلى المعبد ليبحث عن هذا الوسيط، ومن ثَمَّ نستمر في محاولة الوصول إلى أي معلومة تقودنا إلى (أباداماك) هذا أو أيًا كان اسمه الحقيقي.

خيَّم الصمت ثانية ورحت أفكر كيف سأقنع والدي بهذه الخطوة إلا أن (أشرف) قطع أفكاري قائلًا: من الواضح أنني من سأقوم بهذه المهمة فـ(يوسُف) الآن يحتاج بالطبع لموافقة والده قبل أن يخطو خطوة واحدة.

شعرت بالضيق لتهكمه الواضح إلا أنه للأسف كان محقًا، فلو كنت سأحافظ على العلاقة الحديثة بيني وبين والدي فسأضطر إلى إعلامه قبل المضي قدمًا في هذا الأمر، كما أنه هو الوحيد الذي يستطيع استخراج جواز سفر لي مستخدمًا علاقاته، ولاحت فكرة

التعويذة التي تحدث عنها (أشرف) منذ دقائق في خاطري ورحت أسأل نفسي: هل يمكن أن يكون هذا الأحمق على حق؟

******

٨. سَرُّ الدِّمَـاء

جلس الأستاذ (صفوت) يستمع إلى شجار ضيفيه في صبر وانتظر حتى انصرفا وأخذ يحدق في الصورة الرقمية للمخطوطة التي استطاع (يوسُف) أن يقرأها، وأخرج هاتفه واتصل برقم ما، وما إن أجاب محدِّثه حتى قال: لقد كنت على حق لقد استطاع أن يقرأها.

سأله محدثه: هل استطاع تحديد الموقع؟

- يقول إن المخطوطة تذكر أنه في المعبد و(أشرف) سيقوم بزيارته ويرى إن كان هناك شيء مخبأ في الأرجاء.

- لا، لن يتمكن (أشرف) من كشفه، لابد أن يكون (يوسُف) هو الذي سيسافر.

- لا أستطيع أن أطلب منه هذا بطريقة مباشرة، كما أن علاقته بوالده أصبحت جيدة ولابد أن يُعلِمه إذا كان سيسافر إلى المعبد، وأنت تعلم أنه لن يسمح له بهذا.

- حسنًا، اترك هذا الأمر لي وسوف أحاول اختلاق أمر ما يجعله يوافق، ولكن احرص على عدم علم (مختار) بعلاقته بك.

- لقد أكدت على (يوسُف) عدم ذكر اسمي لوالده معلِّلًا ذلك بأنني أخشى أن يقوم بإيذائي كما فعل مع الضابط.

- جيد، سأُنهي المكالمة الآن حتى لا يشك (مختار) بوجود هاتف معي.

- حسنًا يا (شوقي)، ولكن هل أنت متأكد من قدرتك على إقناع (يوسُف) بالذهاب إلى المعبد؟

- قلت لك دع هذا الأمر لي.

قالها وأنهى الاتصال وراح (صفوت) يتطلع إلى صورة رقمية أخرى بها رسم ما، وقال بصوت خافت: أتمنى أن تسامحني يومًا ما على هذا يا (يوسُف) فليس هناك سوى هذه الطريقة لإنهاء الأمر.

******

بعَدَ عَدَّة أيام وعلى مأدَبةٍ فاخرة جلست مع والدي والأستاذ (رضوان) نتناول طعام الغداء، حيث دعا والدي صديق طفولته كتعبير صامت عن تقديره لمجهوده الذي بذله لإصلاح الأمور بيننا.

كانت علاقتي بوالدي تمر بمنعطفٍ صعبٍ تحتاج مني إلى حذرٍ شديد في التعامل معه خاصةً بعد أن بدأتُ بالشك بأنني من الممكن أن أكون واقعًا تحت تأثير تعويذة ما.

كان حديث الأستاذ (رضوان) يتجه بشكل رئيسي حول إتمامي لدراستي التي لم أنهيها والشروع في البحث عمن ترضى بالزواج بشخص (سوابق) مثلي – قالها مازحًا بالطبع فهو يعلم أن مكانة والدي الاجتماعية والمالية تتيح لي الزواج من بنت أحد الوزراء لو أردت- إلا أنني أجبته قائلًا: بالنسبة للدراسة فسأكمل دراستي في العام القادم بإذن الله، أما بالنسبة لموضوع الزواج هذا فأعتقد أنه لابد من تأجيله قليلًا فهناك الكثير من الأمور على المحك، ولا يمكنني

الارتباط بإحداهن ثم أجد نفسي مضطر لإدخال شيطان ما إلى رأسي حتى لا ينطلق حرًا يعثو في الأرض فسادًا.

قال والدي بصرامة: أخبرتك مسبقًا أن هذا لن يحدث بأي حال.

قلت: وما الذي تنوي فعلَه؟ لقد بدأ يسيطر بالفعل على السيد (شوقي) ولن يستمر الأمر طويلًا حتى يصير جسده غير قادر على التحمل، أشك أن هذه التعويذة التي تستعملها ستحجب (ديباك) بعد أن يتحرر من هذا الجسد.

- ثق تمامًا أنها ستفعل.

من أين أتيت بكل هذه الثقة؟ من أين أحضرت تلك التعويذة التي احتجزته بها أو التعويذة التي حجبتني بها عنه؟، ترى أهناك تعويذات أخرى ينبغي أن أعلم بها؟

تردَّدت هذه الأسئلة في ذهني وأنا أستمع إلى الأستاذ (رضوان) وهو يقول: دعونا لا نستبق الأحداث، ما يهم الآن هو عودتكما سويًا، وكل هذه الأمور يمكن تدبرها.

قلت: ولكن لابد لنا من تدبرها سويًا هذه المرة فلست مستعدًا للعودة إلى السجن مرة أخرى.

بدت علامات الضيق على وجه والدي وقال صديقه بسرعة: هل تعلم يا (يوسُف)؟ حينما كنت شابًا أرتاد الجامعة حديثًا، تفرَّق دربي ودربُ والدك حيث التحق هو بكلية التجارة والتحقت أنا بكلية التربية وفي هذه الفترة بدأت طريق التقرب إلى الله بشكل أكبر

وبدأتُ أتعرَّف طريق الطاعات والالتزام بالعبادات وأخذتُ أنهلُ من الطاعات بشراهةٍ حيث تعلمت المحافظة على الصلوات في المسجد وصيام نافلة يومي الاثنين والخميس بل وحتى قيام جزءًا من الليل، هل تتخيل ما هي أصعب عبادة كانت تشق عليَّ حينها؟

قلت وأنا غير مدرك لمغزى القصة؟

- بالتأكيد صلاة الليل.

- لا، بل كانت بر الوالدين، كنتُ أتخبطُ كثيرًا في فهْمِ القراراتِ التي كان يتخِذها والداي، بل كنت أعتبرهما أحمَقَيْنِ إلى حدٍ ما، وكنتُ أجد صعوبةً في فهم لماذا أمرنا الله عز وجل ببرِّ والدينا ولم يأمرهُمَا بالترفق بنا ومراعاةِ رغباتِنَا، كيف يكون من العدلِ -وهو العدلُ سبحانه- أن يأمرني بطاعة أبواي حتى لو اتخَذَا قرارًا من وجهةِ نظري يمكنُهُ أن يعوق تقدُّم حياتي المهنيةِ والاجتماعيةِ، وظلَّ هذا التساؤل يدور في عقلي كثيرًا حتى حَمَلْتُ طفليَ الأوَّل بين ذراعيَّ، ومرَرْتُ بما مرَّ به والداي معي، واتخذْتُ كثيرًا من القرَارَاتِ بحق أولادي الذين هم في مثلِ عُمرِكَ الآن والتي لم يكونوا سعداء بها ولكنني كنت مضطرًا لاتخاذها لأنني أعلم أنَّها في مصلحتهم، وتذكَّرت حينها الكثير من القراراتِ التي ثرتُ ضِدَ والدي بسببها وتبيَّن بعد ذلك أنني كنت مُخطِئًا، حينها فقط أدركتُ لماذا لم يأمر الله سبحانه الوالدين بالترَفُّقِ بأطفالِهما، لأنه وبكل سهولة جعل هذا غريزة في تكوينهم كالاحتياج إلى الطعام والشراب تمامًا، فالأب بكل بساطة لا

يمكنه إلا الترفُّقِ بولده ومراعاةِ الأصلحِ له حتى لو لم يستوعب ولَدهُ هذا بسهولة، وحتى إن كانت القرارات التي اتخذها متطَرِّفة إلى حدٍ كبيرٍ كالتي اتخذها (مختار) بحقك، صدقني يا ولدي، هو لا يمكنه إلا أن يفعل ما يراه في مصلحتك، قد تكون قد استوعبتَ هذا الأمر الآن ولكنك لن تشعر به وتصدِّقه بكل كيانك حتى تحمِل طفلَك الأوَّل بين ذراعيك.

ساد الصمت قليلًا قطَعَهُ صوت رنين هاتفي فرفعت الهاتف لأجد رقمًا من خارج البلاد على شاشته لم أميز المفتاح لأي دولة فأجبته لأستمع إلى صوت (أشرف) يقول: لا يوجد شيء هنا.

قلت: هنا أين؟

- المعبد، أنا الآن في المعبد، هو مجرد مزار أثري لا يوجد به إلا رسومات منقوشة على الجدران، لا يوجد مخبأ يمكن أن يخفي هذا الوسيط أيًا كان.

- هل تستطيع أن تبحث عن كلمة (ديباك) بأي مكان؟

بدا القلق على وجه والدي عندما استمع إلى ذلك الاسم، وصاح (أشرف) بحدة: بالطبع أستطيع، ولكن سأضطر إلى الانتظار مائة عام أخرى حتى يتمكن العلماء من قراءة تلك اللغة وأعطني عامًا بعدها على الأكثر لأتعلمها ثم سآتي حين أكون في عمر المائة والثلاثون لأبحث عن كلمة (ديباك).

لم أتمالك نفسي من الابتسام وقلت ضاحكًا: حسنًا سأنتظرك.

ثم قاطعت سُبَّةً ما أطلقها لم أتبينها جيدًا وقلت: هل يمكن أن تنتظر إلى الغد سأحاول المجيء إليك.

- حسنًا سأنتظر، ولكنني لا أتوقع مجيئك.

قالها وأنهى الاتصال فقال والدي: ماذا يحدث، وإلى أين تريد الذهاب؟

سَكَتُّ قليلًا ثم قلت بلهجةٍ جادة: أظن أن الوقت قد حان ليثبت كلٌ منَّا أنه يثق بالآخر.

تعلَّقت عينا كلا الرجلين بي في انتظار أن أكمل فتابعت: هناك أمرين، أولهما لابد لي من لقاء السيد (شوقي) مرة أخرى.

همَّ والدي بالاعتراض إلا أن صديقه استوقفه بإشارة من يده وقال: والآخر؟

قلت بحذر متوقعًا ردة فعل عنيفة: هل تظنَّا أن الجو سيكون شديد الحرارة في هذا الوقت من العام في السودان أم أننا سنعتاد عليه سريعًا عند ذهابِنا؟

******

انهمَكْتُ بشدَّةٍ في لعبِ إحدَى الألعابِ على الهاتف تاركًا أبي وصديقه يتناقشان بحدة، أدهشني بشدة تطور الهواتف والألعاب التي تستطيع تشغيلها في هذه السنوات السِّت وحاولت في الأيام القليلة الماضية التي قضيتها في المنزل مواكبة هذا التطور قدر الإمكان، حاولت بشدة الانشغال باللعب لِئلا أستمع إلى نقاشهما

الحاد حتى لا تطرُق مسامعي كلمة تجعلني أقوم بهَدْم كل ما تم بناؤه حتى الآن، إلا أن صوتهما المرتفع لم يسمح لي بهذا وأبي يتحدث عن خطورة السيد (شوقي) وأنه لن يسمح لي بمقابلته مهما حدث ومحاولة الأستاذ (شوقي) لإقناعه بتركي أفعل ما أراه صحيحًا حتى يشعرني بثقته بي مجددًا، انخفض صوتهما لفترة خرج بعدها والدي محتقن الوجه يقول بانفعال: أنا لست مضطرًا لإثبات أي شيء لأي شخص ولكنني سأتركك تقابل هذا الرجل لمرة واحدة فقط، ولتعلم أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأسمح لك بهذا، حتى لو أدي هذا إلى تركك للمنزل مرة أخرى.

كدت أن أرد ردًا عدوانيًا إلا أن الأستاذ (رضوان) استبقني قائلًا: وهذا هو ما يريده (يوسُف)، يريد أن يقابله لمرة واحدة، أليس كذلك؟

قالها وهو ينظر إليَّ يحثني بنظراته على مجاراته فقلت ببرود: بلى.

اتجه ثلاثتنا لمقابلة السيد (شوقي) والذي ما إن رآنا حتى ابتسم قائلًا: لا يزال الذئب يصادق الحمل أرى أن تعويذتك قد أدت غرضها بشكل كبير.

أجاب والدي: كفاك ألاعيبًا يا رجل، ولتجب على أسئلة (يوسُف).

سألت: عن أي تعويذة يتحدث؟

- بالتأكيد عن التعويذة التي أحتجزه بها هنا، دعك من ألاعيبه ولتسأله ما تريد.

بالطبع لم أقتنع بإجابته، ما علاقة التعويذة التي يحتجزه بها هنا بعلاقتي بوالدي أو على حد تعبير الرجل "الذئب والحمل" لابد أنه يقصد شيئًا آخر له علاقة بكلينا، كان ادِّعاء (أشرف) بوقوعي تحت أثر تعويذة ما يفرض نفسه في ذهني أكثر وأكثر، ويدفعني إلى الاعتقاد بأن كل ما أمرُّ به الآن مع والدي مجرد خدعة مدروسة له فيها مآرب أخرى غير ما صرَّح لي به.

قطع أفكاري صوته وهو يقول: هيا يا (يوسُف)، لماذا أردت رؤيته؟

قلت بصرامة: بشأن المعبد، ماذا يوجد في المعبد؟

أجاب الرجل: قلت لك أنني لا أعرف، أنا لا أذكر إطلاقًا أنني طلبت منك الذهاب إلى المعبد.

- نعم لقد أخبرتني بهذا، ولكنك تعلم أنك كاذب.

احمَرَّ وجه الرجل بشدة، ووضع أبي يده على كتفي كأنه يتأهب للفصل بيني وبينه إذا حدث تشابك بالأيدي وقال بحذر: مهلًا يا (يوسُف)، ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأنه كاذب.

- هناك سببين، أولهما: أنه إذا كان حتى هذا الشيطان هو من كان يسيطر على عقله حينما طلب مني ذلك فسوف يتذكر هو بالتأكيد ما حدث، فهو لا يُغيِّب عقله كما فهمت ولكن يحدث تبادل

في السيطرة، ومن يفقد السيطرة منهما يبقى دائمًا في الخلف يطَّلِع على كل ما يحدث دون القدرة على التحكم، هذا ما حدث لـ(مودور) عندما سيطر عليه هذا الشيطان، لقد بقِيَ واعيًا يتحدث معه ويراقب ما يحدث دون أن يستطيع التدخل في حينها حتى استطاع أن يمسك بزمام الأمور مرة أخرى.

قال الرجل: وما الذي يدفعك إلى الظن بأن هذا ما حدث لي؟ يمكن أن يختلف الأمر باختلاف الأشخاص.

- هنا يأتي السبب الآخر وهو أنني علمت لماذا بدأت تراودني هذه الأحلام منذ أن بدأت في التعلم على يديك.

سأل بحذر: لماذا؟

- الشاي.

ابتسم قائلًا: أخبرتك من قبل أنك تمتلك عقلًا ذكيًا، ولكن كيف استطعت استنتاج هذا؟

قال والدي: ماذا تعني بالشاي؟

أجبته: في كل مرة كان يقوم بتعليمي إحدى هذه التعاويذ كان يقوم بتحضير كوبين من الشاي الذي كنت أشعر فيه بنكهة غريبة وعندما سألته قال إن له وصفته الخاصة في إعداده التي ورثها عن جدوده، لم أفكر في الأمر حينها ولكن بما أن هذه الأحلام لم تبدأ إلا بعد بدء تعليمه إياي هذه التعاويذ، فكان من السهل أن أستنتج أن كوب الشاي يحمل شيئًا مختلفًا وعلى الأرجح كنت تضيف إليه قطرة

أو اثنتين من الإكسير لترى مدى تحملي له وكذلك ليعتاد جسدي عليه حين يأتي موعد تناولي له.

أخذ والدي بتلابيبه وقال: ماذا كنت تسقِيَه أيها الوغد؟

أبعده الأستاذ (صفوت) عنه وهو يهدئه فتابعت: ليست الإشكالية في الإكسير ولكن في اعتقادي أن الإكسير كان مخلوطًا بقَدْرٍ من دمائه، لا أدري إن كان هذا جزء من تركيبته أو إنها إضافة خاصة قام بها، إلا أن هذا القَدْر القليل هو ما تسبب في الحلم الذي كنت أراه على مدار السبعة أعوام، وعندما قابلتك بعد خروجي من السجن، أصررت على تناولي كوبًا من الشاي يحمل نفس النكهة وهو ما تسبب في تنشيط الأمر مرة أخرى بل ورؤيتي للعديد من الأحلام بعدها، أعتقد أن جزءًا من وعيه قد انتقل لي من خلال دمائه.

كان وجه والدي المحتقن ينذر بعاصفة تقترب وهو يتابع الرجل الذي يقول: أعترف أن هذا يفوق بكثير ما توقعته منك، لقد أثبتَّ فعلًا رجاحة عقلك وصفاء ذهنك، وأضيف إليك أني لم أضف دمائي إلى الإكسير كما تظن، فالدماء هي الإكسير، لا يوجد وصفة ما تركها الكاهن لتصنيعه، لذا فنحن نشرب من دماء أسلافنا التي تحوي الإكسير، فهو يظل في الدم بطريقة ما ولا يتم تصريفه بالأيض الطبيعي للجسم، ولكن ما علاقة هذا كله بأنني قابلتك بعد خروجك من محبسك؟

- ببساطة لأنه لو كان هو المسيطر كما تقول، فلن يسعى إلى تحضيري لاستقباله في جسدي وحتى لو سعى إلى السيطرة على جسدي فلن يسعي إلى تحضير عقلي لأتمكن من السيطرة عليه، أنت من قدَّم لي كوب الشاي هذا استكمالًا لما بدأته وأملًا في تجهيزي في الوقت المناسب لاستقبال ذلك الشيطان.

وعلى حينِ غفلة منا انقضت العاصفة المنتظرة، وتحوَّل أبي إلى وحشٍ كاسر انقضَّ على الرجل ليسقطه أرضًا وانهال عليه باللكمات المتعاقبة، ولكن الرجل انتزع من جيبه مدية غرسها في كتفه بسرعة وكأنه كان يتجهَّز لهذا الهجوم.

انتزع أبي المدية من كتفه وألقاها بعيدًا واستكمل بذراعه السليمة اللكمات في قوة حتى استطعت أنا وصديقه انتزاعه من فوقه بصعوبة بالغة.

أجلست والدي أرضًا وأسندت ظهره إلى الحائط ونزعت قميصي وفصلت كمه عنه وكوَّرت بقيتَه ووضعتُه على جرحِهِ وربطته بإحكامٍ بكُمِّ القميص.

في حين حاول الأستاذ رضوان وقف الدماء التي تسيل من وجه السيد (شوقي) إلا أنه استوقفه بإشارة من يده وقال: لا داعي لهذا، هيا انصرفوا جميعًا.

قلت بإصرار: لن أتحرك خطوة من هنا حتى أعلم ما الذي يوجد في المعبد لترسلني إليه؟

- ألم تفهم بعد أيها الذكي؟ من هناك بدأ كل شيء، أنا لا أعرف من أين يأتي والدك بتعويذاته تلك ولكنني متأكد أن له علاقة بالمعبد، إذا كان هناك تعويذة لسجني هنا بهذا الشكل فبالتأكيد المعبد هو مصدرها، وإن كان هناك أخرى تستطيع تحريري فبالتأكيد لن تجدها إلا هناك، لذلك حاولت إرسالك إلى هناك، أما عندما التمَّ شملك ووالدك بطريقة أشك أنها طبيعية كان لابد لي من صرفك عن الذهاب إلى هناك حتى لا تصطحب والدك معك ويستولي على ما سوف تجده أيًا كان.

ثم أشاح بوجهه المضرَّج بالدماء وقال: والآن انتهى الدرس يا صغيري، عليك أن تكمل طريقك وحدك من الآن فصاعدًا، كما أنك لابد أن تعلم أن ما ستجده في المعبد إما أن يهلك كلينا وإما أن يحرِّرنا سويًا.

نهض والدي واصْطَحَبَنِي إلى الخارجِ قائلًا: هيا يا (يوسُف)، هذا يكفي.

سرت معه وأنا أسأل الرجل: سيحررك أنت من سجنك، ممَّ سيحررني أنا؟

- أنت تعلم يا (يوسُف)، فقط ينقصك الاعتراف بهذا لنفسك.

خرجنا من القبو ولم أتمالك نفسي من مواجهة والدي فصحت قائلًا: بماذا يقصد أن ما يوجد داخل المعبد سوف يحرِّرني، هل أنا أيضًا واقع تحت تعويذة ما دون أن أدري؟

بدت على والدي علامات عدم فهم -بالتأكيد مصطنعة- وهو يقول: ماذا الذي تلمِّح إليه تحديدًا؟

- أنا لا ألمح إلى شيء، أنا أسألك سؤالًا مباشرًا هل تعلم ما الذي يقصده بكوني سأتحرر أنا أيضًا؟

أجاب بحدة: وما أدراني؟ قد تكون لعبة جديدة من ألعاب (شوقي) المعتادة ليدفعك إلى فعل أمرٍ ما دون أن تفكر في عواقبه.

- هل تقصد أنني ساذج لدرجة أن يخدعني الرجل دون أن ألحظ؟

هنا تدخل الأستاذ (صفوت) ليُقلِّل من حدة المشهد قائلًا: لا يقصد هذا بالطبع يا ولدي ولكنك بِتَّ تعرف الآن هذا الرجل وأكاذيبه، وأنت بنفسك اكتشفت بمهارة فائقة كذِبه، بالإضافة إلى خدعة الإكسير والدماء، لم يكن أحدنا ليكتشف هذا بسهولة، أليس كذلك يا (مختار)؟

قالها وهو ينظر إلى والدي يستحثه على التصديق على ما يقول فقال: بالطبع، لقد أثبتَّ براعتك في كشف كذبه، وإن كنت أودُّ لو أنك أعلمتني قبل ذلك باستنتاجك هذا.

قلت منتهزًا الفرصة: إذن ستسمح لي بالذهاب إلى المعبد؟

تعلَّقت عيناي أنا وصديقه به للحظات حتى قال: لن يمكنني استخراج جواز سفر لك قبل ظُهرِ الغد على أفضلِ تقدير.

- ولكنهم طلبوا مني أوراق الخدمة العسكرية أو الجامعة حين حاولت استخراجه.

- دَع هذا الأمر لي وتجهَّز للسفر، يمكنني أن أحجز مكانًا لكلينا على أي طائرة ليلة الغد.

سألت بدهشة: لكلينا؟

- بالتأكيد لن أتركك تسافر وحدك إلى هناك، على الرغم من أنني أعلم أنه لا طائل من هذا، لأنني كما أخبرتك فحَصْتُ كل شبر في المعبد ولم أجد أي دليل قد يقودني إلى أي شيء.

استجمعت شجاعتي وسألته: إذن فمن أين أتيت بتلك التعاويذ؟

- لقد عثرت على أستاذٍ في مجال الحضارة المصرية القديمة ومتخصص في الأساطير الفرعونية ولقد ساعدني في العثور على بعض المخطوطات التي كشفت لي الأمر برمته، وكل هذه التعويذات كانت مسجلة في مخطوطات نوبية قديمة.

سألت بحذر: وما اسم هذا الأستاذ؟

- (صفوت)، اسمه (صفوت صدقي).

اندَفَعَت على الفور صورة الرجل أمامي وهو يعرض لنا ما اكتشفه من مخطوطات ويشرح لنا تاريخ عائلتي ثم طلبه منِّي مؤخرًا ألا أذكر اسمه أمام والدي مما دفعني إلى الاعتقاد أنه يلعب لعبة كبيرة عليَّ وعلى والدي في نفس الوقت فقلت: يبدو أنه يتم التلاعب بنا بشكل ما.

- لماذا؟ هل تعرف الرجل؟

أخبرته بعلاقتي بالرجل وشرحت له بالتفصيل كل ما حدث منذ لقائي به قال: سأصطحب رجالي ونذهب إليه الآن ونرى ما الذي يخفيه عنا.

قلت بسرعة: أرجوك لا تفعل، سوف يعرف أننا اكتشفنا حقيقته، سوف أجري تحرياتي بطريقتي الخاصة حتى موعد السفر، وإن كان ما أظنه صحيحًا فيبدو أننا عثرنا أخيرًا على (أباداماك).

******

جلس (شوقي الكيال) مُسنِدًا قدميهِ على حافة المكتب كعادته وأخذ يراقب الساعة في توتر واضح، كان (مختار) و(يوسُف) في طريقهما لركوب الطائرة المسافرة إلى السودان ينتظرهما (أشرف) ليذهبوا سويًا إلى المعبد، كانت هذه هي فرصته الوحيدة ليقوم بنقل (ديباك) إلى (يوسُف) وإذا ضاعت هذه الفرصة فسيتم إطلاق الشيطان مرة أخرى وإلى الأبد، كان يرى أن انتقال (ديباك) إلى (يوسُف) أمرًا ضروريًا للغاية، لقد تعلَّم خلال حياته الطويلة أن المكسب الكبير يلزمه تضحية كبيرة وهذا ما سيدركه (يوسُف) عند إتمام الانتقال، سيعيش وهو يعلم كل ليلة أنه يحفظ العالم من شر هذا الشيء وفي نفس الوقت سيكون احتفاظه بشبابه وقوته طوال قرنين من الزمان أمرًا رائعًا لو كان سيبقى حيًا كان سيشكره عليه لاحقًا.

هو يرى أنه يسدي إليه وإلى العالم خدمة جليلة حتى لو اضطر إلى الكذب والخداع قليلًا ليحقِّق غايته النبيلة، لقد استطاع في لقائه الأخير به أن يدفعه دفعًا للذهاب إلى المعبد بإظهار تخوُّفِه من هذه الزيارة فكان رد الفعل المتَوَقَّع منه هو أن يصر عليها بأي ثمن، وقد حان الوقت ليقوم بجزئِه من الخطة.

فُتح باب الغرفة ودخل منه رجلًا ذو بشرة تميل إلى السمرة يحمل حقيبة صغيرة بيده فقال في قلق: لماذا تأخرت يا (صفوت)؟

أجاب الرجل: لقد انتظرت حتى استغرق جميع الحراس في النوم، فلقد استغرق المنوم الذي وضعه الطباخ بطعامهم بعض الوقت لكي يأتي بثماره.

- حسنًا، هل أحضرت مكونات التعويذة؟

- بلى، ينقصنا فقط دماء (مختار) باعتباره الذي قام بتعويذة الحجب.

أخرج (شوقي) من درج مكتبه المدية التي طعن بها (مختار) بالأمس وما زالت دماء الأخير المتجلطة تلوثها وقال: ها هي ذي.

أخرج (صفوت) بدوره من حقيبته بضعة أشياء غير مترابطة، علبة من الطبشور الأسود وكيسًا قماشيًا به بلورات ملح كبيرة وكيسًا بلاستيكيًا به نبات المريمية وجمجمة صغيرة لحيوان ما يبدو أنه ثعبان وزجاجة بها زيت ذي لونٍ أخضرٍ فاتح، كما أخرج مجموعة كبيرة من الشموع الضخمة ملفوفة برقعة من جلد الثعبان، وتلك

الصورة الرقمية التي كان يحدِّق بها بعدما انصرف (يوسُف) من عندِه.

شرعا سويًا في نقل الرسم الموجود في الورقة على الأرض باستخدام الطبشور الأسود، كان عبارة عن دائرة كبيرة بداخلها دائرة أصغر قليلًا وتقطع هاتين الدائرتين المتداخلتين أربع دوائر صغيرة في الاتجاهات الأربعة بداخل كل منها رمز ما، وما بين الدائرتين توجد عدة أحرف من اللغة المروية القديمة وبداخل الدائرة الصغيرة رُسِم ما يشبه الوردة ذات سبع ورقات وبمركزها نجمة سباعية.

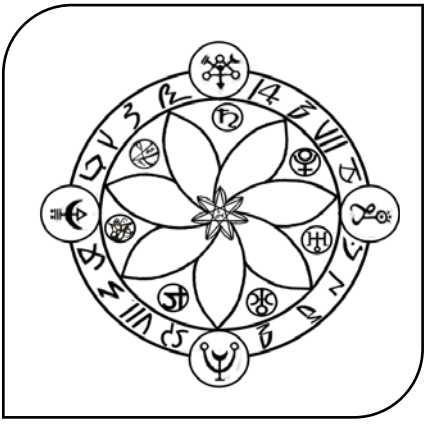

انتهيَا من نقل الرسم ووضَعَا الشموع على رأس ورقات الزهرة وأشعلاها ووضع (شوقي) رقعة جلد الثعبان في مركز الوردة ووضع فوقها بلورات الملح ونثر القليل من أوراق المريمية ووضع عليها ما

استخلصه من الدم المتجلط من على المدية ووضع فوق هذا كله الجمجمة الصغيرة وسكب بضع قطرات من الزيت فوقها ثم قام بسكب بقيته بشكل دائري على حافة الدائرة الخارجية وقام بإشعال النار في الخليط الموجود على رقعة جلد الثعبان والذي أخذ يُخرج دخانًا أبيضًا بسيطًا وراح يردِّد مع (صفوت) بشكل متناسق "زينام روديك ديباك شيم.. زينام روديك ديباك شيم" راحا يردِّدانها بنغمة واحدة لعدة دقائق حتى راح الدُّخان المتصاعد من منتصف الدائرة يصبح أكثر كثافة، وفجأة اشتعلت النيران في الزيت الموجود على أطراف الدائرة وعلت حتى منتصف الغرفة تقريبًا وأخذت تخفت شيئًا فشيئًا حتى اختفت تمامًا، وهنا قال (صفوت): هذه هي العلامة، اشتعال النيران في الزيت يعني أنَّ كلًا من تعويذة الحجب في الغرفة وعلى سورِ المنزلِ قد انكسَرَتا، يمكنك الآن مغادرة المكان.

وقف (شوقي) يُعَدِّل من ثيابه ويتأنق أمام المرآة، ثم خَطا خُطوَاته الأولى خارج الغرفة بعد ما يقارب سنواتٍ سِت قضاها حبيسًا داخلها وهو يقول: إذن فلنغادر سريعًا فهناك طائرة ينبغي علينا اللحاق بها.

******

٩. دَامَـــاك

أخذتُ أتصفَّح أوراق جواز السفر الذي تسلمته في الموعد الذي حدَّده والدي وأنا على متن الطائرة المتجهة إلى الخرطوم، كنت قد اتصلت بـ(أشرف) وأخبرته أننا نحتاج إلى (خالد) بشكل مُلِحٍّ في المعبدِ تحسُّبًا إذا ما كنتُ واقعًا بالفعل تحت تعويذةٍ ما وكان أبي يدبر أمرًا لا يُحمد عقباه، وبالطبع وافق على مكالمته عندما علم أنني أشك بالفعل في نوايا أبي، وبالفعل لمحت (خالدًا) في قاعة المطار إلا أنه توارَى عن ناظري حتى لا يحتك بوالدي.

وصلنا إلى الخرطوم وقابلنا (أشرف) الذي استقبله والدي بحفاوة ولكنه بالطبع قابل هذه الحفاوة بشكلٍ عدواني ورفضَ مصافحته قائلًا: أهلًا بقاتل أبي.

لم يُرِد والدي أن يدخل في نقاشات جانبية على الأرجح يرى أنها تافهة -فكيف يكون عدم تقبل (أشرف) لمصافحة قاتل والده أمرًا هامًّا يستحق المناقشة- فقال: سنبيتُ الليلة بالفندق وسنذهبُ فجر غدٍ إلى النقعة.

قالها وانصرف فهمَمْت باللحاق به فاستوقفني (أشرف) سائلًا عن الفندق الذي سنمضي به ليلتنا ليوافينا عنده صباحًا فأخبرته باسمه وطلبت منه الحضور معنا إلا أنه رفض بحجة أنه سيقابل (خالد) فتركتُهُ وأسرعتُ للحاق بوالدي.

وعند شروق شمس اليوم التالي كان أربعتنا يستقل سيارة مستأجرة تتوجه إلى النقعة حيث يوجد معبد (أباداماك).

بدا من نظرات (خالد) الحانقة التي يسترقها إلى والدي أنه يمُرُّ بلحظات عصيبة بسبب تواجده معه بنفس المكان، أما (أشرف) فقد كان يتحاشى النظر إليه تمامًا، حاولت كسر الصمت بعبارة ترحيب عادية لاقت ردًّا من الصمت البليغ فأغلقت فمي وشاركتهم صمتهم.

"أخيرًا وصلنا"

قلتُها وأنا أتأمل المعبد الذي كان يقع على مسافةٍ قريبة جدًا من معبدٍ آخر يُسمَى المعبد الروماني والذي تستطيع أن تستنتج اسمه بسهولة من طراز تصميمه، ومعبدٍ ثالثٍ يسمى معبد آمون.

أما معبدنا المنشود فهو ذو واجهة حجرية عبارة عن جدارين كبيرين بارتفاع ستة أمتارٍ وعرض كل واحدٍ منها نحو ثلاثة أمتار تقريبًا تصل بينهما بوابة تبدو فرعونية التصميم إلى حد ما.

شرَعتُ في شرح ما لم أكن أعرف أنني على علمٍ به وقلتُ لرُفقتي: الرسم على الجدار الأيمن للملكة (أماني تيري) أو (الكنداكة) كما كانت تُلقَّب الملكة في هذا العصر، وعلى الجانب الأيسر الملك (تنكامي) والمفترض أن هؤلاء الناس مجهولي الملامح والمرسومين في وضع الاستسلام هم أسرى يحاصرهم (تنكامي) و(أماني تيري)، والرسم الموجود على حافة البوابة الرئيسية هذه هو (أباداماك) يخرج من زهرة اللوتس.

سألني والدي: من أين لك بمعرفة هذا؟

قلت بتلقائية: لا أمتلك أدنى فكرة.

التفَفْنا حول المعبد الذي كان جدرانه الجانبية وجداره الخلفي بنصف ارتفاع الواجهة تقريبًا، وعلى جزء الواجهة الجانبي المحاذي للجدار الأيسر يوجد نقش بطول الجدار تقريبًا لثعبانٍ ملتوٍ برأسِ أسد، ووصلنا إلى الجدار الخلفي للمعبد والذي نُقِشَ عليه المِلكين وهما يقدِّمان نذورهما إلى (أباداماك) المرسوم بثلاث رؤوس وأربعةِ سواعِدٍ وبجوارِهِ نَقْشٌ لأحدِ آلهة الإغريق وآخر لأحد آلهة الفُرس، وهو ما يتَّضِح من هيئتِهما.

قال (أشرف): لقد بحثت شبرًا شبرًا في هذا المكان ولم أجد أي شيء.

قال والدي: لقد سبقتُك إلى هذا ولم أجد شيئًا بدوري، ولكن كان على (يوسُف) بالطبع التأكد بنفسه، فأنَّى له أن يثق بوالده!

كاد (أشرف) أن يقول شيئًا ما لم أحتج إلى مهارة شديدة لأعرف أنه سيكون عدوانيًا فسَبَقتُه قائلًا: العصا هي الدليل.

سأل والدي: ماذا تعني؟

- هذا ما قاله لي السيد (شوقي) "عندما تقدم الملكة نذورها ستكون العصا هي دليلك إلى ما تريد" أعتقد أنه يقصد هذا الرسم الذي يصوِّر المِلكان وهما يقدمان نذورهما لـ(أباداماك) وبالتأكيد العصا هي تلك التي تحملها الملكة.

كان النقش به العديد من الأجزاء الصغيرة المتآكلة خاصة عند أسفل الجدار حيث تتسع رقعة هذا التآكل، ألا أن العصا بيد الملكة كانت تمتد لنهاية أسفل الجدار فشَرعتُ في الحفر بجوار الجدار لأكشف نهاية الحجر الذي تنتهي عنده العصا حتى ظهَرَ نقشٌ بارزٌ على حجر الجدار السفلي المدفون في الرمال، أزَحتُ التراب من حوله حتى ظهر مكتمِلًا واتَّضحَ أنه لثلاثِ رؤوس أسود متصلين من الأسفل حاولت الضغط عليه فلم يستجب حاولت إدارته فدار معي نصف دورة ولم يستجب بعدها سواء لاستكمال دورة كاملة أو حتى ليعود سيرته الأولى، وقفت أنظر إلى ثلاثتهم في حيرة وهم يبادلونني نظرات التساؤل حتى اهتزَّت الأرض فجأة من تحت أقدامنا بشكلٍ عنيفٍ وأمسك والدي بذراعي وابتعد بي عن الجدار وتبِعَنا (خالد) و(أشرف) وأخذنا ننظر إلى الرمال وهي تتساقط في تجويف بدأ يظهر تحت الأرض.

استمرت الاهتزازات لفترة وجيزة أسفرت عن ظهور مدخل به دَرَج يقود لأسفل فنظرت إلى والدي وقلت: أخبرتك أنه يوجد شيء ما هنا.

وسبقتُهم إلى النزول عبر السلم إلى ممر ضيق وتبعني ثلاثتُهم في صمتٍ، وبدَأ الظلام يغطي معالم المكان فأخرج أربعتنا هواتفنا النقالة لتضيء لنا المكان.

كان الممر ضيقًا منقوش على أحد جانبيه نقشًا يصور (أباداماك) برأس الأسد خاصَّتِه وهو يحمل رمحًا ويطعن به رجلًا مُلقى على الأرض وبجواره رمحًا على الأرض من المفترض أنه سقط منه، وعلى الجدار المقابل نقشًا آخر يصوِّره وهو يمسك ثعبان ملتوٍ بكلتا ذراعيه ويغرس أنيابه فيه.

انتهى الممر بحجرةٍ واسعةٍ نسبيًا يمتلئ جداريها الجانبيين بكتابةٍ باللغة المروية وبعض الرسومات لبعض التعاويذ منها وشم السيد شوقي والوشم الذي رسمه والدي على صدري وغيرهما، وفي الجدار المقابل مدخل آخر للحجرة يبدو أنه يقود إلى ممرٍ ضيق بدوره وفي منتصف الحجرة مذبح حجري يعلُوه سكِّين بدائي ذو مقبض حجري، قال والدي بقلقٍ بالغٍ: لا يمكن أن يكون هذا السكين هنا، إنه في الحجرة المحجوبة بقبو المنزل.

جاءه صوت مألوف من خلف المدخل الآخر للغرفة يقول: لا تقلق يا (مختار) مازال سكينك في موضعه.

دخل السيد (شوقي) من المدخل الآخر للغرفة وتبعه الأستاذ (صفوت) عالم التاريخ وتابع الأول: هذا هو السكين الأصلي الذي سحرَهُ كهنة معبد (أباداماك) ليقتل به (ديباك)، وعند هروبه ولجوئه إلى الكاهن المصري، استطاع الكاهن صنع آخر يؤدي نفس وظيفته وهو الموجود بغرفة قبوك الأنيقة.

فقلت: دعني أخمن، هناك مدخل آخر للغرفة أسفل أحد المعبدين المجاورين.

أومأ برأسه موافقًا وقال: المعبد الروماني، كل مباني هذا العصر تمتاز بفكرة المدخلين حتى يكون هناك متسع للهرب في حالة الخطر.

قال والدي وعلامات الفزع تغزو وجهَهُ: كيف أتيت إلى هنا، كيف خرجت من الحجرة من الأساس؟

- أتيتُ إلى هنا بالطائرة التي أقلعت بعد طائرتكم بثلاث ساعات، وخرَجْتُ من الحجرة بتعويذة مضادة للتعويذة التي احتجزتني بها، كان ينقصني فقط القليل من دمائك ولكنني حصلت عليها بالأمس عندما هاجمتني كالأحمق فبدا طعني لك بالمدية رد فعلٍ طبيعي لا يثير الشكوك، وبالطبع الفضل يرجع إلى السيد (صفوت) فهو من جاءني بتلك التعويذة.

نظر والدي إلى الأستاذ (صفوت) وقال بغضب: كيف تتعاون مع هذا الشيء؟ كيف تطلق سراح هذا الشيطان؟

لاذ الأستاذ (صفوت) بالصمتِ وأجاب عنه السيد (شوقي): لا تلُمْهُ يا (مختار)، لقد تصرف وفقًا لما رآه الأصلح، فبعد احتجازك لي علمت بطرقي الخاصة أنك تتردَّد عليه كثيرًا في الآونة الأخيرة فتواصلت معه من خلال الهاتف الذي لم تعثر عليه عند قيامك بتفتيش الغرفة لأكثر من مرة وشرحت له الأمر وكيف أنه لو لم يتم نقل هذا الشيطان كما تسميه سيجلب هذا وبالًا على الجميع ولقد

تفهَّم الأمر وساعدني كثيرًا بداية باستقطاب (أشرف) وشَرْح له ما أُخفيَ عنه وبالتالي استقطاب (يوسُف) عند إنهائه فترة سجنه وهو من قام أيضًا بزرع الشك في نفس (أشرف) تجاه صُلحِك مع ولدِك والتعريض بأنه من المحتمل أنك قد قمت باستخدام تعويذة ما للسيطرة عليه، وبالطبع لاقى الأمر استحسانًا لدى الشاب الذي يكرهك بشكل طبيعي لقتلك أباه فقام بزرع الفكرة بشكل غير مباشر وغير مُتعمَّد في رأس ولدك الذي بدأ يشك في الأمر ويُصِرُّ على عكس ما تنصحه به مما أدى في النهاية إلى حضوركم جميعًا هنا، عند السكين التي يجب عليه قتلي بها.

قال والدي في هياجٍ: لن يفعل هذا يا (شوقي)، عليك أن تقتلني قبل أن أسمح بهذا.

ونظر لي في استجداء ألا أفعل فقلتُ: انتظر يا أبي حتى نستوعب الأمر.

ونظرت إلى الأستاذ (صفوت) الذي وقف صامتًا وتابعتُ: إذن فلا يوجد وسيط كما كنت تدَّعي، ماذا إذن عن المخطوطة؟

أجاب الرجل: موضوع الوسيط هذا معقد قليلًا ولكنني سأشرحه لك لاحقًا، أما المخطوطات فهي سليمة لقد زيَّفتُ فقط المخطوطة الأخيرة التي تتحدث عن الوسيط والمعبد لأدفعك إلى الحضور إلى هنا؟

- وكيف زيَّفت مخطوطة بلغة غير معروفة؟

- لست وحدك من تجيد قراءة اللغة المروية.

قال (أشرف) بحدة: حتى وإن كانت حقيقة وكان هناك وسيط بالفعل، ماذا سنفعل به ونحن لا نعرف شيئًا عن (أباداماك)؟ لقد كنت تظن أنه السيد (صفوت)، ولكن إذا كان هذا صحيحًا كان سينفجر كلاهما بمجرد مصافحتهما لبعضهما البعض.

ابتسم الرجل وقال: هذا لأنك تنظر في الاتجاه الخاطئ.

- ماذا تعني؟

قلت: هو يعني أننا كنا مخطئين في الاعتقاد بأنه هو (أباداماك)، في حين أن الأخير كان معنا طوال الوقت دون أن نشعر.

قلتها ونظَرْتُ إلى (خالد) الذي ابتسم بمجرد أن أنهيت عبارتي وقال: رائع، كيف اكتشفت هذا؟

سأل (أشرف): أنت؟ أنت هو (أباداماك)؟

تجاهله (خالد) وتابع النظر إليَّ فقلت: في الحقيقة كانت هناك جملة تؤرِّقني منذ فترة عندما قلت أن (ديباك) كان يتحكم في رؤساء القبائل منذ قديم الأزل مع أنني لم أخبرك بهذا إلا حينما بدأت أروي لكم الأحلام التي تراودني، أي بعد عبارتك هذه بأسبوع على الأقل، إلا أنني لم آبه لها حينها، وعندما علمت بالأمس بأمر علاقة الأستاذ (صفوت) بوالدي على الرغم من أنه لم يذكر ذلك قط بل حرَصَ على تذكيري بألا أُعلِم أبي بصلتي به، بدأتُ أشك أنه قد يكون هو (أباداماك) وأنه يدير خطة خفِيَّة للوصول إلى السيد (شوقي) حتى

أنني أخبرت (أشرف) عن شكوكي فتعاون معي في البحث عنه، إلا أننا وجدناه رجلًا عاديًا علاقته بأولاده وأحفاده قوية، في حين أنه لو كان هناك شيء ما يسيطر على رأسه فلن يتمَكَّن من مزاولة حياته الاجتماعية بنفس الطريقة، وهنا قفزت في ذهني عبارتك أنك لم تعد متزوجًا بعد مع شكوكي المسبقة بخصوص عبارتك، فبدأت بالتحري عنك وقابلت مُطلَّقتك ليلة الأمس أو بالأحرى مُطلَّقة (خالد) وعلمت أنه بعد زواجه بأربعة أعوام فقَدَ فجأة اهتمامه بها وبطفله الذي كان يعتبره حياته كلها، أخبرَتني بالنص "وكأنه تبدل إلى شخص آخر بنفس الملامح" حتى أنه لم يحاول زيارة طفله منذ انفصالهما، وعند سؤال والدي علمت منه أنك أنت من دفعت المصروفات الجنائية لي حتى أخرج مبكِّرًا وأنه لم يفعل ذلك برغم طلب المحامي منه دفعها وذلك حتى أقضي عقوبتي بالكامل فأصير غير لائق لشرب الإكسير عند خروجي من السجن، وعلمت منه أيضًا أنه لم يبلغ الشرطة عند اقتحامي للمنزل بعد خروجي على عكس ما أخبرتني أنت مما يدل على أنك كنت تراقبني دون أن تتدخَّل وتنتظر ماذا سيسفر عن محادثتي مع السيد (شوقي) وهو ما دفعك للاتصال بي فور وصولي إلى الفندق مدَّعيًا أنك علمت باقتحامي من خلال بلاغ والدي، ولكن ما أكدَّ لي الأمر علمك بتفاصيلٍ عن مقتل أقاربي لم تُذكَر في محاضر التحقيق التي كان والدي يحتفظ بنسخة منها، علمًا بأنك لم تكن الضابط الذي يباشر التحقيقات لذا فمعلوماتك عن هذه

القضايا لا تتعدَّى المكتوب في تلك المحاضر، فكيف علمت إذن أن عمِّي (صادق) كان يسبح يوميًا قبل ذهابه إلى عملِهِ وكيف علمت أن عمي (جابر) معتادًا على شرب القهوة قبل نومه مع أن هذه المعلومات لم تُذكَر في أيٍ من محاضر التحقيق، لا يمكن أن تعلم هذا إلا إذا كنت تراقبهم عن كثب، أنت من قمت بقتلهم جميعًا حتى تجد الفرصة لدخول المنزل والتحقق مما يوجد بداخله وعلى الرغم من قدومك مع فريق التحقيق إلا أنك تعلَّلت أمام باب المنزل بالمرض وانصرفت، لأن التعويذة التي كان والدي يحتجز بها السيد (شوقي) في الغرفة كان قد ألقى مثلها حول سور المنزل بأكمله تَحسُّبًا من إفلاته من الأولى، وهي كما منعت خروجه فهي أيضًا منعت دخولك لأنكما في النهاية كيانين متشابهين، وعندما بدأت تشك بأن (ديباك) قد انتقل إليه أطلقت عليه الرصاص بدوره إلا أن موته الذي كان وشيكًا أكدَّ لك أنك كنت مخطئًا، ولذلك كنت تتحاشى مقابلته كل ذلك الوقت لأنك تخشى أن يتعرف عليك لاعتقادك بأنه قد يكون رآك عندما أصبته.

قال (خالد): أنا لم أسعى لذلك بالتأكيد فلقد تعلمت خلال كل هذه السنين أن أحيا دون التلبُّس بالأجساد فهذا يعطيني الحرية أكثر في التنقل والبحث عن ضالتي، كنت أتسلَّلُ إلى رؤوسِ ضُباطِّ الشرطة منذ زمن أبحث في رؤوسهم عن أي شيء يمكن أن يقودني إليه وأرحل خلال ساعة على الأكثر عندما أتيَقَّن من عدم وجود شيء،

حتى زرت عقل (خالد) ووجدتُّه يحوي تلك الجملة التي قلتها لوالدك "(ديباك) هو حقي" علمتُ حينها أنني عثرت عليه أخيرًا وكنت بحاجة إلى حُجَّة أدخل بها إلى المنزل دون أن يلاحظني (ديباك) فاضُّطرِرت إلى إثارة الشبهات حول والدك لأتمكن من الدخول بصفةٍ رسميةٍ ولكنني فوجئت أنني ممنوعٌ من الدخولِ، فكان لابد لي من الاستقرار قليلًا في جسدِ (خالد) حتى يمكنني متابعة التحقيق عن قرب وبالطبع استغلال موقعه كمعاونٍ للمباحث في مراقبة (مختار) وكل من يمُتُّ له بصلة.

قال (أشرف) بدهشة: أتقصد أنك أنت من قتلت عائلتنا؟

همَّ والدي بالاندفاع نحو (خالد) لضربه فحُلْتُ بينهما بجسدي قائلًا: هذه معركة لن تود خوضها يا أبي، ثق بي.

توقف بالفعل في مكانه وقال: ثق أنني لن أتركك تنجو بفعلتك هذه أيها الضابط القاتل.

قلت: ليس (خالد) هو القاتل يا أبي، (خالد) لا صلة له بهذا الأمر نهائيًا، فقط حظه العاثر أوقعه تحت سيطرة هذا الشيء، مَن فعل هذا هو الكيان المسيطِر عليه أيًا كان اسمه.

أجاب (خالد): (داماك)، اسمي هو (داماك).

والتفتَ إلى السيد (شوقي) الذي امتلأت عيناه بالرعبِ وقال: وهذا هو شقيقي التوأم (ديباك).

والتقط السكين الموجودِ على المذبحِ وتابع: مرحبًا يا شقيقي العزيز، أرى أنك قد افتقدتني بشدة، فلقد مرت ثمانِ سنواتٍ كاملة منذ آخر مرة قتلتُك فيها.

قالها واندفع نحوه شاهرًا السكين ليقتله.

******

قبل ٢٣٨٠ عام

وقف (لوسمبا) كاهن معبد (أباداماك) يتطلع إلى الكاهن الذي قتله (ديباك) أثناء فرارِه والرجال فاقدي الوعي من حوله وقال: لقد هرب (تويوي) ثانية أخشى أن ينتقم منا (أباداماك) بسبب هذا.

قالها لشاب قوي يقف بجواره والذي قال: ألم تقل إنه تركك وغادر بحثًا عنه؟

- نعم ولكن أخشى أنه إن لم يجِدْهُ أن يعود لرأسي مجددًا ويعاقبنا على فشلنا.

- فلنأمل إذن أن يجدَه، ولنسْتعِدَّ حتى إذا ما حضر يومًا ما نكون قادرين على مواجهته.

- كيف سنتمكن من مواجهته؟ بمجرد أن يدخل إلى رأس أحدنا نفقد السيطرة ويصير هو المتحكم بشكلٍ كاملٍ، صحيح أنه لم يعثو فسادًا في أرضنا كما فعل (تويوي) كما أنه دافع عنا بضراوَةٍ في كثير من الحروب لم نكن لنفوز بها لولاه إلا أنه حينما يغضب يقتل بدون شفقة.

- ولكن الإكسير نجح بالفعل معي ولم يتمكن في الفترة الأخيرة من السيطرة على عقلي، يمكن أن يكون (مودور) غير مؤهلٍ لاستعماله ولكن في النهاية يمكن للإكسير أن يُفقِدَه قوته، وكما استطعنا أن نحتجز (تويوي) نستطيع أن نصنع تعويذة أخرى نحتجز بها (أباداماك) في جسد قوي يستطيع السيطرة عليه.

- وماذا إن لم يعد الآن، ماذا لو عاد بعد مائة عام فمن الذي سيتمكن من مواجهته حينها؟

- فلندَوِّن القصة من بدايتها في مكان يتم حمايته جيدًا ولندَوِّن فيه كل شيء عن تعويذة التقييد والإكسير، وحينها سيتمكن الجميع من مواجهته في أي وقت.

******

الآن

التقط (خالد) أو (داماك) السكين الموجود على المذبح وقال: مرحبًا يا شقيقي العزيز، أرى أنك قد افتقدتني بشدة، فلقد مرت ثمانِ سنواتٍ كاملة منذ آخر مرة قتلتك فيها.

وبمجرد أن التقط السكين أخرج الأستاذ (صفوت) قداحة وأشعلها وألقاها أرضًا فاشتعلت النيران في مربع كامل بمحاذاة جدران الغرفة وامتدَّت على شكل خط فاصل في منتصف الغرفة ليدور حول المذبح الذي يتوسطها ويعود مرة أخرى ليسير بشكلٍ مستقيمٍ إلى جانب الغرفة الآخر ويلتقي بالنيران المشتعلة هناك بحيث أصبحت النيران

تحيط بنا من كل جانب وتفصلنا عن السيد (شوقي) والأستاذ (صفوت).

لم يدُمُ الأمر لأكثر من ثوانٍ كان (داماك) قد أشهر السكين خلالها واندفع عبر الغرفة ليقضي على شقيقِهِ إلا أنه اصطَدَمَ بحاجزٍ خفيٍ في منتصف الغرفة منعَهُ من الوصول إليه، وقال الأستاذ (صفوت): هل تظن أنني سوف أثق بك لدرجة أنني سأتركك تلامس شقيقك لتقتلنا جميعًا.

لم يفهم (داماك) ما حدث فتابع الرجل: كلاكما محبوس في نصفه من الغرفة ولن يتمكن أحدكما من مغادرته مهما فعل حتى نتمكن من حل هذه المشكلة.

قال السيد (شوقي): اللعنة لقد كنت تخدعني أيضًا طوال الوقت.

- الحقيقة يا (شوقي) أنني كنت أخدعكم جميعًا حتى نصل إلى هذا الموقف، ليس من قبيل المصادفة دراستي للأساطير الفرعونية وعلاقتها بالحضارات المجاورة، فكما أن عائلتكم تتناقل هذا الشيطان منذ القِدَم فعائلتي تتناقل تاريخه الأسود وما فعله بشعبي منذ أكثر ألفي عام بل وطريقة مواجهتِهِ واحتجازه كما احتجزَهُ أجدادي من قبل في جسد (مودور)، هذه الغرفة بناها أحد أجدادي يدعى (لوسمبا)، أظنك تعرفه يا سيد (داماك) فلقد كنت تسيطرُ على عقلِهِ ذات يوم ونقَشَ فيها القصة من بدايتها حتى تنتقل جيلًا بعد جيل وبالطبع نُقلِت بلغتها الأصلية التي تعلمتها وأسلافي لنتمكن من فهم

المكتوب هنا، ولم أكن أتخيل أنني من سأقوم بمواجهتك في النهاية، هذه هي السكين الأصلية التي كانت مُعدَّة لقتل (ديباك)، أما الإكسير فـ(لوسمبا) هو من صنعه ولم يتمكن (قاي-آل) من صنع إكسير مماثل له فاضطر إلى شرب دماء (مودور) المملوءة به خاصة بعدما نجح في سحرِ سكين يقوم بعمل السكين الأصلي.

قلت: وما الغاية من تجميعنا بهذا الشكل؟

- ألا يكفيك احتجاز الشقيقين هنا، لن يتمكَّنا من الخروج ولن يتمكَّنا من ملامسة بعضهما البعض، أنت كنت تبحث عن (داماك) وكأنَّه الحل المنتظَر ولم تنتبه إلى أنه قاتل هو الآخر كل ما يهمه هو قتل شقيقه حتى لو قتل آلافًا مؤلفة في سبيل ذلك.

قال (داماك): أظنها خطة محكمة يا حفيد (لوسمبا)، أعتقد أن الذكاء متوارث في عائلتكم منذ قديم الأزل، ولكن هناك ثغرة صغيرة بها.

قال الرجل بحذر: وما هي؟

فجأة انتفض (خالد) وبدت عليه علامات الفزع وهو يقول: لست أنا، أقسم لكم لست أنا من قتلهم، إنه هو.

وكاد أن يسقط أرضًا إلا أن (أشرف) أمسك به، وسأله والدي: من هو؟

سمع الجميع صوتي وأنا أقول: أنا بالطبع يا والدي العزيز.

******

فجأة شعرت بنيرانٍ تشتعلُ في رأسي وكأنَّ جمرةً ملتهبةً قد اخترقته، ومع اختراقها تدفقت آلاف المشاهد والذكريات إلى عقلي، ذكريات مئات أو آلاف البشر قد اخترق عقولهم قبلي، رؤساء ووزراء، فلاسفة وحكماء، أساتذة وعلماء، ملوك وأمراء، وولاة وخلفاء، عصور كاملة تتدفق معلوماتها إلى رأسي دفعة واحدة رأيت صورًا من مصر الملكية وعصور المماليك، شاهدت الأيوبيين والفاطميين، العباسيين والأمويين، الفراعنة والبيزنطيين، ومشاهد مختلفة وسط قبائل أفريقية، وكهنة وطقوس سحرية، ثعبان ضخم أطارده وأفتك به بأنيابي، انفجار ضخم يكاد أن يفتك بي تحت شمس ضخمة تميل إلى الحمرة تُشرق على صحراء ضخمة أهيم فيها على وجهي وأنا أعدو فوق رمالها التي تميل إلى اللون البني، كنت أسمع نفسي وأنا أقول للأستاذ (صفوت): دعنا نرى إن كان السيد (مختار) سيقبل بحبس ولده هنا إلى الأبد وأنا في رأسه بعد أن فعل كل ما فعل ليمنع (شوقي) من نقل أخي إليه.

كنت عالقًا وسط الذكريات، بالتأكيد لم أقل هذا وبالتأكيد لم أفكِّر به، كنت تائهًا وسط هذا السيل من الذكريات والمشاعر، أجد فرحًا وسعادة تغمرني بشدة ثم أشعر بحاجتي للبكاء في اللحظة التالية، حتى توقف سيل الذكريات عند شابٍ أعرفه، لا أعرف من أين ولكنني رأيت هذا الوجه من قبل يقول شارحًا لي بلغة لم أسمع ما يشبهها طوال حياتي ولكنني فهمتها بسهولة: أنت لا تستوعب الأمر

يا أخي (داماك)، النيزك عبارة عن حجرٍ مُشِّع يماثل في تركيبه الجزيئي معدن ساثا المشع المعروف بأرضنا ولكن بشكل مضاد فجميع شحناته الموجبة سالبة في حجر النيزك والعكس، وكان من الطبيعي أن يتلاشى النيزك بمرور الوقت لتضاد جزيئاته مع أي شيء يلمسه على سطح أرضنا ولكنه يحيط نفسه بطبقة متعادلة تحميه من التشتُّت وكلما أُخذِت قطعة منه أحاطت نفسها بتلك الطبقة وكأنه كائنٌ مُفكِّر يستطيع حماية نفسه، الكارثة تكمن في أن هذا المعدن هو الشيء الوحيد الذي يمنع تكوُّن الطبقة المتعادلة على سطح حجر النيزك مما يجعله قابلًا للتشتُّت عند التقائه به وهذا التشتُّت سيكون مصحوبًا بانفجارٍ ذو قوةٍ تدميريةٍ رهيبة، ويمكن له أن يستمر طويلًا حتى تتلاشى كتلتي الحجر والمعدن تمامًا، (ديباك) يحاول جمعهم في جسم واحد يصمد أمام هذا الانفجار ويستطيع احتوائهما ليستمر الانفجار لأطول فترة ممكنة، ويضع بينهما عازلًا بحيث لو نُزِع ذلك العازل يتلامس المعدن وحجر النيزك فيحدث الانفجار الذي يمكنه أن يدمر ثلاث مدن متجاورة على الأقل، لو نجح في هذا فهو لن يُخضِع مملكة الشمال كما يدَّعي ولكنه سَيُبِيدها، عشر عبوات من هذه كافية لإبادة المملكة بأكملها.

شعرتُ فجأة بحزنٍ شديد يعتصرُ قلبي وأخذتُ أبكي بشدةٍ وأنا أحمل نفس الشاب بين ذراعي والدماء لازالت تسيل من جرح عميق في صدره، تذكرتُ فجأة من أين أعرف هذا الشاب، أعرفه لأنني

قتلته، نعم قتلته في أحد الأحلام التي كانت تراودني من عقل (ديباك)، اللعنة لقد قتل أخيه الأصغر لأنه اكتشف أمرَهُ والآن شقيقه التوأم (داماك) يسعي للانتقام منه، ارتفعت دقات قلبي بشدة وأنا أعدو هائمًا وسط الصحراء، جبال من خلفي وجبال من أمامي لا ألمح ملاذًا قريبًا أستطيع أن ألجأ إليه، ثم وجدت نفسي فجأة أقف باحترام أمام رجل ذو هيبة يجلس على عرش فضي وفوق رأسه تاجًا يبدو وكأنه مصنوع بأكمله من الياقوت الأحمر وأقول: هذا هو ما حدث يا سيدي، لقد قَتَل شقيقي عندما اكتشف أمرَه وحينما أثبتُّ لوالدي بأنه هو من فعلها وهمَّ باتخاذ إجراء ضده دبَّر مؤامرة لقتله بمعاونة الوزير واستولى على العرش ولم أجد إلا الهروب من المملكة بأكملها حينما أصدر أمرًا بقتلي.

قال الرجل: لا يمكن أن نسمح بوصول هذا السلاح إلى هنا، حتى لو اضطررنا للهجوم على مملكة الجنوب لتفادي إبادتنا.

- لك الحق يا سيدي فيما ترى وثق أنني سأفعل أي شيء للنيل منه والحفاظ على السلام بين مملكتينا الذي كان والدي يعمل جاهدًا مخلصًا للوصول إليه.

ثم وجَدتُّ نفسي بعدها مرتديًا درعًا أسوَدًا لامعًا في أرض المعركة يطربني صليل السيوف وزئير الآلات العملاقة التي تطيح بالبشر، ووقعت عيناي عليه فرُحْتُ أركُضُ نحوَه وكأنني وجدتُّ ضالتي أخيرًا مُسقِطًا كل من وقف في طريقي، ووَجَّهتُ إليه ضربة قوية بسيفي

إلا أنه تمَكَّن من صدَّها بدرعِهِ، تبادلنا الضربات والطعنات حتى جرَّدتُه من سيفِهِ وطعَنْتُه في جنبِهِ فسقَطَ أرضًا يصرخ كالأطفال، رفعتُ سيفي لأُجهِزَ عليه إلا أنه وضع يدَهُ على تلك الأداةِ مخروطية الشكل المعلقة بحزامه فضربتها بسيفي محطِّمًا إياها إلا أنه تمكن من الضغط عليها قبل أن أحطِّمها بأقل من ثانية فحدث انفجار كاد أن يفتك بي لا أعرف كيف نجوتُ منه.

سمِعتُ الأستاذ (صفوت) يقول: أنت محق يا (داماك)، هذه هي الثغرة الوحيدة، تعلُّق (مختار) بولده واستعداده لفعل أي شيء لأجل إنقاذه، لقد تخيَّلتُ هذا المشهد مرارًا وتكرارًا، نفس الوجوه ونفس الأماكن وفي كلِ مرةٍ أجد هذه الثغرَة ولا أرى كيف أتفادها حتى توصلت أخيرًا إلى الحل.

قلتُ بقلقٍ: وكيف هذا؟

- بعد خروج (يوسُف) من محبسه جاءني والده ليبحث عن حلٍ ليبعده بأي طريقة عن (شوقي) فأعطيته تعويذة تُوشَم على صدره غير قابلة للإزالة لتمنع دخول (ديباك) إليه.

قال والدي فجأة وكأنه تذكَّر شيئًا: هذا صحيح، لو كنت صادقًا فيما قلت فكيف تمكَّنَ هذا الشيطان الآخر من الدخول إلى ولدي؟

- لأنني لم أكن صادقًا بالفعل يا سيد (مختار)، وأرجو أن تسامحني يومًا على هذا، لقد كانت تعويذة مماثلة للتعويذة التي حُبِس بها (ديباك) في جسد (مودور) من قبل ولكن لها غرض آخر.

قلت وقد ازداد قلقي: وما هو؟

- حَبْسُك أنت يا (داماك)، أنت لن تستطيع مغادرة جسد (يوسُف) والدخول إلى رأس غيره، كما أنك لن تتمَكَّن حتى من قتله، كنت أعلم أنك ستلجأ إلى الدخول في جسدِهِ لتُجبِرَ والده على إخراجِه من هنا، فعَمِدتُّ إلى حبسِك في جسدِه.

اتَّسعَت عينا أبي في ذعر وقال: أيها الوغد.

وهَمَّ بالانقضاض على الرجل إلا أن (أشرف) استوقفه بصعوبة.

أحسَسْتُ بطرقات عنيفة داخل رأسي سبَّبَت لي ألما شديدًا فأمسكتُ رأسي بكلتا يدَيَّ حتى هدَأت رُويدًا رُويدًا وقلت: ولكن ما الفائدة من هذا أيها الغبي؟ القطرات التي أعطاها له (شوقي) لن تكفيه ليسيطر عليَّ، لقد حكمت عليه بالنفي داخل جسده.

- صحيح، هذه القطرات لن تكفيه أبدًا، ولكن الإكسير الذي كنت أضعه لكم في الطعام بكميات كبيرة سيُمَكِّنه من ذلك بسهولة.

أحسَسْت برعبٍ في رأسي ولكنني لم أكن خائفًا بالفعل، إنه هو، هو من يشعر بهذا الرُّعب، حاولت استعادة عقلي، طرقات وطرقات، وألم فظيع يكتنف رأسي، وشعورٌ بأن تلك الرقعة المظلمة في عقلي تنحَسِر وتنحَسِر، وأخذت أركز بعيدًا عن تلك الذكريات وأبتعد عنها ببطء وأخيرًا قلت: لهذا كنت تُصمِّم على تناولنا الطعام لديك؟

كنت أنا من قلتها هذه المرة فلقد استعدت عقلي أخيرًا، وشعرتُ به يتجول داخله يستعرض أفكاري وأحلامي، وغضبي وآلامي،

وسعادتي وآمالي، إلا أنني تجاهلتُه وأنا أستَمِعُ إلى الرجلِ وهو يجيب: وهذا هو ما جعلني أكتشف حقيقته بالإضافة إلى الأمور التي اكتشفتها أنت، فقد بدأت أشك فيه بسبب ذلك الصداع الذي يكتنفه كلما تناول الإكسير، فبدأت بدوري تحرِّياتي عنه حتى انكشف لي أمره، هو لا يعرف سبب تلك الآلام لأنه لم يمُر بهذا الموقف قط، لا يعرف أن عقل (خالد) الحقيقي كان يكتسب القوة ويحاول الخروج إلا أنه سبق وأضعَفَهُ بشدَّةٍ فلم ينجح في ذلك.

قلت للسيد (شوقي): كيف استطعت هذا، كيف قتلت أخاك وأباك، كيف كنت ستقتل آلاف البشر بسبب طمعك؟

أجاب: أنت تعلم بالطبع أنني لست من فعل هذا.

نظر إليَّ الجميع بتساؤل فقلت وأنا أستمع إلى القصة في عقلي حيث كان (داماك) يخبرني إيَّاها بكامل إراداته: إنهما شقيقان، ليسا من هذا العالم، كان (ديباك) هو العالِم و(داماك) هو المحارب، ورغم أن والدهما لم يقرِّر بعد من سيكون ولي العهد من بينهما إلا أن الجميع كان يعلم أن (داماك) المحارب القوي الشجاع هو من سيأخذ يومًا ما مكان والده، لكن (ديباك) لم يتقبل هذا بسهولة وفي سبيل إثبات براعته وقوَّته لوالده اخترع سلاحًا قوِيًّا ليبيد به مملكة الشمال التي كانوا يخوضون حربًا ضدها من قديم الأزل في الوقت الذي كان يسعى والده لإبرام صلح مع ملكها، ولما اكتشفه أخوه الأصغر قام بقتله لئلا يخبر والده وعندما اكتشف (داماك) ووالده ما حدث قام

(ديباك) بقتل والده أيضًا واستولى على عرش المملكة وأصدر قرارًا بقتل (داماك) الذي هرب إلى مملكة الشمال وحارب معهم ضد قومه لينتقم من أخيه، وعندما تمكَّن منهُ فجَّر (ديباك) السلاح، لكن قبل أن ينفجر حطَّمَهُ (داماك) بسيفه إلا أن هذا لم يوقف التفجير ولكن يبدو أنه أحدث خللًا به فامتص كل واحد منهما نوعًا من الطاقة الموجودة بالسلاح وتحوَّلا إلى هذين الكيانين وانتقلا إلى عالمنا من خلال الطاقة المتدفقة من الانفجار، لم يكن هناك بشر في المنطقة التي وصلا إليها ولم يعرفا بقدرتهما على السيطرة على الأجساد لذا فبمجرد ملامستهما لأول شيء قابلاه دخلا إلى أجسادهما دون قصد، فكان نصيب (داماك) الأسد ونصيب (ديباك) الثعبان وبالطبع طارد الأسد الثعبان وبمجرد أن لامسه انفجر كلاهما، ومن هنا اشتهر (داماك) بالأسد لكونه شجاعًا دافع عن كل قبيلة حلَّ برأسِ فردٍ منها، وعُرف في مملكة الكوشيين باسم (أبا_داماك) أي الإله (داماك) واشتهر (ديباك) بالأفعى التي تنشر سمومَها بين القبائل وغيَّر من اسمه مرات عديدة حتى لا يلفت انتباه أخيه، لكنه في كل مرة كان يصل إليه حتى اختفي في مصر منذ ألفي عام.

سأل الأستاذ (صفوت) بلهفة: هل علمت كيف تمكَّنا من الحياة لكل هذا الفترة؟

- هو لم يحيا لآلاف السنين كما نظن، لقد كانوا ثمانِ سنوات، فحينما وصل إلى هنا لم يستوعب ما يحدث وشعر بارتباك شديد،

لقد خُيِّلَ إليه أن الشمس تشرق وتغرب بعد لحظات قليلة، لم يستطع أن يعيِّن رقمًا محدَّدًا ولكنه أحصى أكثر من ثلاثمائة شروق وغروب في الفترة التي قدرها بشكل تقريبي بيومٍ واحد من أيام عالمه، هو ببساطة لا يشعر بالزمن كما نشعر به نحن، الزمن في عالمه مختلف بشكل ما، لذا فهو يعتقد أنهما وصلا إلى عالمنا منذ حوالي ثمان أو تسع سنوات فقط بحساب عالمه.

ثم ابتسمْتُ لغرابة ما أسمع وقلت: يمكنك أن تتخيل أنهما في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمرهما.

سأل (أشرف): وما الجَدْوَى من كل هذا؟ لقد سَكَن رَأسَكَ بالفِعل.

التقطتُّ السكين التي ألقاها (خالد) أرضًا وقلتُ وأنا أنظُرُ للأستاذِ (صفوت): الآن فهمت، لا يوجد وسيط في المعبد، أنا هو الوسيط.

أومأ برأسه موافقًا وقال في حزن: صدِّقني يا ولدي لم يكن أمامي سوى هذا، هذا هو الحل الوحيد لتجنُّبِ إزهاق المزيد من الأروح، لقد أُرهقَ عقل (خالد) بشدة ولم يكن مستعدًّا لتحملهما معًا، كان الانفجار سيحدث لا محالة بمجرد طعنِهِ له.

أومأت برأسي متفهِّمًا، فالتقط قداحته مرة أخرى وأشعلها وألقاها على جزءٍ محدَّدٍ بجوار المذبح فخَرَجَتْ أدخنة زرقاء من مكان اشتعال النيران السابقة واشتعلت نيران أخرى في دائرة على مساحة أقل ولكنها أحاطت بنا جميعًا.

سأل والدي بقلق: ماذا تفعل؟ ماذا تعني بتحمُّلهما معًا؟

نظِرْتُ إليه وقلت: إنه يزيل الحاجز بيننا.

- لماذا؟

تطلَّعْتُ إليه وأنا أشعر نحوه بشعور عجيب لم أعهده، لا أنكر أنني أحب الرجل، إلا أن ما أشعر به الآن يفوق هذه الكلمة، لقد كانت كل حركاته وسكناته في سبيل حمايتي حتى وإن عانيتُ منها، كيف يمكن لأحدٍ أنَّ يُحب أحدًا بهذا الشكل بحيث يفعل أي شيء من أجل حمايته حتى وإن لم يتلقَّ كلمة شكر بل كان كل ما يتلقَّاه تشكيك في نواياه وعدم الثقة به، تذكرت قول الأستاذ (رضوان) "أمرنا الله ببرِّ والدَينا ولم يأمرهما ببرِّنا لأنه جبَلَهُما على ذلك، جَبَلَهُما على حب أولادهما والرفق بهم وحمايتهم" فسبحان من يدبر ملكه بحكمته حتى وإن لم نستطع فهمها.

سألتُه: هل تذكر ما قلتَه لي عندما تم إلقاء القبض عليَّ؟

أجاب بسرعة: بالطبع أذكُر.

- لقد كذبت عليك حينها.

- ماذا تقصد؟

- لقد كنتُ كاذبًا يا أبي، فأنا لم أكرهك يومًا، أنا أيضًا أحبك.

قلتها واندفعت نحو السيد (شوقي) وطعنتُه بقوة بالسكين المسحور، طعنتُه في كتفِهِ محاولًا تفادي قتلَه إلا أنه سقط صريعًا من فوره وبَقِيَتِ السكين في يدي وكأنها التصقت بي فلم أستطع إفلاتها وشعرت بذلك الشيء البارد يتسلل إلى جسدي من خلالها كثعبان

صغير بارد يزحف تحت جلدي مباشرة حتى استقرَّ على جانب صدري الأيسر.

فككت أزرار قميصي لأرى موضع استقراره لأجد وشم الرجل الذي اختفى أي أثرٍ للحياةِ من عينيه يُرسَم بكامل تفاصيله على جسدي وكأن يدًا خفية ترسمه بسرعة ودقة وإتقان و...

ولا شيء، لم يحدث شيء آخر.

انتظرت الانفجار، أو أن يتمزق جسدي لأشلاء ولكن لم يحدث شيء قط، فقط سيلًا مختلفًا من المشاهد والذكريات التي استطعت التعامل معها هذه المرة.

وقفتُ منتظرًا لدقيقة، وجميع من حولي خائف يترقب ولكن لم يحدث شيء.

كانت نظرات الفزع والقلق والترقب على وجه والدي تؤلمني بشدة، فحاولت طمأنتُهُ إلا أنني فجأة أحسَسْتُ بجسدي وكأنه يشتعل، شعورٌ رهيبٌ باحتراقِ كل ذرةٍ فيه، فأطلَقْتُ صرخة ألمٍ عالية جعَلَتْه يتجه نحوي في جزع فاستوقَفْتُه بإشارة من يدي ولم أرَ إن كان قد توقف أم لا فقد انطلق ذلك الضوء بقوة، انطلق من داخلي وأحاطَ بي وأغشَى عيناي واضطرني إلى إغلاقِهما وأنا أستمع لتلك الصرخات والأنَّات، لم أرَ شيئًا ولكنني كنت على علم بما يحدث، لا أدري كيف ولكنني كنت فقط أعلم، أعلم أن هذه الصرخات لـ(ديباك) وهو يحترق في طريقه إلى التلاشي، وهذه الأنَّات المكتومة

لـ(داماك) المحارب الشجاع الذي كتَمَ صُرَاخَهُ وآلامَهُ حتى يحظَى بموتٍ مُشرِّفٍ بعد أن حظِيَ بانتقامه من قاتل والدِهِ وشقيقِهِ.

استمَرَّت الصرخاتُ والأنَّاتُ لثلاثِ دقائقٍ تقريبًا تلاشَتْ بعدها تمامًا وتلاشى معها الألم، ففتحتُ عينَيَّ وبمجرد أن فتحتهما اكتشفتُ أنَّ الجميع قد اختفي من حولي، ورحتُ أنظر إلى الصحراءِ الواسعةِ ذاتِ الرمالِ بُنِّيةِ اللون التي أقفُ وَسَطَها وتلك الشمس الكبيرة المائلة إلى الحمرة تتوسط السماء من فوقي، كنت أعرف في قرارة نفسي ما يحدث إلا أنني رقدت على ظهري وسط الصحراء وأغمضت عيني وانتظرت..

انتظرت طويلًا، ثم انتظرت وانتظرت..

ولكن هذه المرة لم يحدث شيء.

******